دقة قديمة

في مديح بيتنا القديم..

(محمد محمد مستجاب)

مقالات: دقة قديمة.. في مدح بيتنا القديم
المؤلف: محمد محمد مستجاب

تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: مروة فتحي

رقم الإيداع: 20162 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85544-2-7
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

دقة قديمة

في مدح بيتنا القديم

(مقالات)

محمد محمد مستجاب

البيت..

مملكة النعيم أو الجحيم الأرضي

لم أفهم معنى البيت إلا بعد رحيل والدي، صار البيت جحيمًا أعيش فيه، ضاقت جوانبه الرحبة، وتقلصت أرجاؤه، وضعفت رفوف مكتباته، وضغط سقفه على عقلي وقلبي؛ لذا قمت بتكوين بيت يتناسق مع أفكار والدي، حيث الهدوء والراحة وكثير من الشمس وبعض الموسيقا، ومكتبة متناسقة تستطيع أن تستقبلك وترحب بك وتطمئنك في هذه الحياة.

فلم يكن البيت بالاتساع أو الضيق، أو بالغنى والفقر، بل البيت أساسه من يعيشون فيه، وبالتالي يصبح جنة أرضية أو جحيم أبدي.

البيت مملكة صغيرة يبنيها الأب ويسيطر عليها فترة زمنية قصيرة قبل الانقلاب عليه تحت سيطرة الأم وسلطتها، وهكذا تصير البيوت، لديها ملك معلن وملك يحكم ويقود ويوجهه ويطعم ويتفنن في تغير مزاج البيت حسب رغباته، لكن يظل الأب هو الحاكم الفعلي في المراسلات وإيصالات النور ودفع الإيجارات أو العوائد، وفي النداء أيضًا: بيت عائلة فلان، أو قد يصير البيت مجموعة بيوت متجاورة لعائلة كبيرة واحدة.

ذلك هو البيت ذو الأربعة جدران الذي نعيش فيه، اتسع وأصبح قصرًا أو ضاق وأصبح عشًّا أو شقة أو جحرًا أو كوخًا أو قبرًا عندما يستقر بنا القرار، فقد يصبح البيت غرفة واحدة يعيش فيها كثير من الأفراد، ومع ذلك تشعر بالدفء والطمأنينة وراحة البال.

فالبيت هو المأوي والراحة التي نذهب إليها بعد عناء العمل طوال اليوم، كبر هذا البيت واتسع أو ضاق، فكثير من البيوت كبيرة الحجم، ولكن تضيق بالمشكلات والكراهية والعداء سواء برجل غاضب أو زوجة نكدية، فيصبح البيت جحيمًا لا يطاق، فلا نجد إلا الشارع والذي يصبح بيتًا، خاصة لكثير من الأدباء والشعراء، وقد اشتهر البعض بأن ليس لهم بيوتًا، بل الشارع بيته، يطرق بابك في أي وقت ويتكوم في أي مكان يجده لينام، كان الملحن بليغ حمدي هكذا، والشاعر أمل دنقل أيضًا، وقد انتزع لقب شاعر الصعلكة الشاعر عبد الحميد الديب؛ لفقره وتسكعه الدائم في الشوارع.

والبيت في المطلق اسم من أسماء الكعبة المشرفة بمكة المكرمة ومن أسمائه البيت الحرام، وأهل البيت: عائلة النبيّ محمد "صلى الله عليه وسلم" وذرّيته، وبَيْتُ اللَّهِ الْمَسْجِدُ والكَنِيسَةُ، وبيت المقْدس حرم القدس الشَّريف وهو المسجد الأقصى، وبيت لحم مدينة عظيمة في فلسطين وهي مسقط رأس المسيح "عيسى بن مريم"، تضم العديد من الكنائس، وأهمها كنيسة المهد، والتي بنيت فوق كهف أو مغارة يعتقد أنها الإسطبل الذي ولد فيه المسيح، بينما "بيت من لحم" مجموعة قصصية للفذ يوسف إدريس، تدور أحداثها عن حجرة ضيقة يعيش فيها أربع نساء: أرملة وبناتها الثلاث ورجل كفيف، وبيت العزة بيت في السماء الدنيا أنزل فيه القران الكريم من اللوح المحفوظ جملة واحدة وذلك في ليلة القدر, ويذكر أن في كل سماء بيتًا حيال الكعبة، فالذي في السماء السابعة يقال له البيت المعمور، والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والبيت المعمور أيضًا هو البيت

المأهول بالعبّاد والمصلِّين والطَّائفين، بينما "بيت العز" أغنية شهيرة للمطربة فايزة أحمد من كلمات مرسي جميل عزيز وألحان محمد الموجي.

وبيت الحكمة أو خزائن الحكمة أول دار علمية أقيم في الحضارة الإسلامية، أُسِّسَ في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، واتخذ من بغداد مقرًا له، وقد نشأ بيت الحكمة أولًا كمكتبة ثم أصبح مركزًا للترجمة، ثم مركزًا للبحث العلمي والتأليف، وكان لبيت الحكمة أثر عظيم في تطور الحضارة الإسلامية، والآن صار "بيت الحكمة" نقابة الأطباء بمصر، أما بيت السلطان أو الحاكم هو البيت الذي يتولى منه شئون الحكم، وبيت العدالة المحاكم وهي أكثر البيوت ازدحامًا وكراهية وضجيجًا؛ لكثرة المشكلات بين الناس، وبيت الحب القلب وبيت الفكر العقل، وبيت الداء المعدة، وبيت الأدب المرحاض، وبيت النار المكان التي تشتعل فيه النيران كالأفران، وتكره الصلاة فيه، وهو أيضًا المخزن الذي يطلق الرصاص في البندقية أو المدفع، وفي الطعام حيث اللحوم التي لم نعد نراها في بيوتنا، يقف بيت اللوح أي الزند وهو الكتف؛ للدلالة على عمار البيت ويسر حاله.

ولأهمية البيت فقد احتل كثيرًا من الأمثال، فيقال: "من كان بيته من زجاج، لا يقذف الناس بالحجارة" لأنهم لو بادلوه حجرًا بحجر لانهدم البيت كله، ويضرب هذا المثل للذي يتكلم عن عيوب الناس، وهو كله عيوب، وقد أخذ منه الدكتور "بطرس غالي" الأمين العام للأمم المتحدة السابق، عنوان كتابه "خمس سنوات في بيت من زجاج" والذي يحكي فيه فترة عمله بها، بينما البيت الزُّجاجيّ هو بناء من زُجاج تُزرع فيه النَّباتات الرقيقة والثمينة وسريعة العطب.

ولأهمية البيوت وثقافتها، يقال: اشترِ الجار قبل الدار: أي قبل أن يشتري الإنسان بيتًا، يجب أن يبحث أولًا من سيكون جاره فيه، أو اسأل عن الجار قبل الدار، وكذلك يقال "نار زوجي ولا جنة والدي" يقال هذا

المثل عن الزوجة؛ لأنها لو تركت بيت الزوجية، فلن تستقر في بيت أبيها (مهما وجدت فيه من راحة) حتى إنها ترى أن بيت زوجها أفضل على الرغم مما يكون فيه من متاعب.

وكثير من البيوت أخذت شهرتها من لونها ليصبح واحدًا من أكثر المباني رمزية في العالم، ك "البيت الأبيض" المقر الرسمي لأقوى رجل في العالم، وهو رئيس الولايات المتحدة، قام بتصميمه المهندس المعماري "جيمس هوبان" على نمط العمارة الكلاسيكي عام 1782 بمدينة واشنطن، وهو أكثر بيت تأتي سيرته في النشرات الإخبارية، وأشرف على بنائه الرئيس "جورج واشنطن" لكنه لم يعش فيه، والبيت الوردي أو "كاسا روسادا" بالإسبانية، وتعني "بيت الحكومة" في مدينة بوينس أيرس، وهو المقر الرسمي ومكتب الرئاسة الأرجنتينية.

ورغم أن البيت يقابله المنزل، أو الدار، إلا أننا نحب كلمة البيت؛ لما لها من راحة نفسية نشعر بها ونطلقها عندما تضيق الأمور بنا، أو عندما نحاول اللجوء إليه للحماية والأمن، ومع ذلك يظل لفظ الدار له دلالات أخرى كبيت مثل: "دار ابن لقمان" في مدينة المنصورة بمصر، أشهر دار ارتبط بها التاريخ الإسلامي، وهي الدار التي شهدت أسر الملك لويس التاسع ملك فرنسا، وهي تنسب لصاحبها القاضي المصري إبراهيم بن لقمان.

والبيت العامر أي الممتلئ بالبشر والروح والحب والبهجة رغم فقر أصحابها، والبيت الفقير بيت الكافر، والبيت المسكون أي يوجد به روح شريرة أو جان، وتحدث فيه أحداث غريبة تثير الخوف والفزع، وأكثر البيوت ازدحامًا بيوت النحل وتسمى الخلية، يقابله بيوت النمل والتي تسمى جحرًا أو القرية، وأوهن البيوت بيت العنكبوت، ويسمى الشباك، وقد استأثر الشعر بالبيت دون الرواية والقصة، بينما بَيْتُ القصيد: الأمر المهم وخلاصة الموضوع وهو أهم أبيات القصيدة أيضًا.

وبيت المال هو بيت مال المسلمين أو بيت مال الله، وهو المكان الذي تحفظ فيه الأموال العامة للدولة الإسلامية من المنقولات، وموارده: الخراج، والزكاة، والجزية، والفيء، والغنيمة، والمكوس، ونحوها، إلى أن تصرف في وجوهها، والآن بيوت المال هي البنوك التي تتصرف في مصيرنا من استحقاقات وحوالات واستلام مرتباتنا، وأيضًا في الحجز على البيت أو منقولاته عند عدم القدرة على السداد.

ولا نستطيع أن نطلق على بيوتنا بيوت النهار رغم ما بها من لهو وسمر وحب، والتي نعيش فيها في مقابل بيوت الليل، وهي بيوت اللهو والسمر، وتمتلئ بعدد لا يحصى من الفتيات ويأتي إليها راغبو المتعة.

والإنسان منذ نشأته يبحث عن مأواه، فهو مطلب أساسي لحياته كطعامه وشرابه وكسائه، والبيت لديه تطور من مغارة أو كهف أو جحر إلى شقق وفيلات ومنازل، لكن يظل أساس البيت وقواعده الرجل ومياهه الجارية وبسمته المرأة، وزينته وبركته وونسه العيال الذين يتقافزون في أرجائه ويحطمون محتوياته.

وفلسفة البيت أنه للسكن والنوم فقط فلسفة خاطئة، ويجب فهم ذلك قبل إنشائه، وأتذكر هنا عدم فهم فلسفة تكوين البيت عندما قام المهندس الراحل "حسن فتحي" ببناء بيوتًا للفلاحين في قرية القرنة بالأقصر بجنوب مصر، وقد بنى البيوت بعيدًا عن حظائر الحيوانات؛ فهجرها الفلاحون ولم يعش فيها أحد، فلا يستطيع الفلاح في مصر أن ينام وحيواناته بعيدة عنه.

ويظل أقوي مثل شعبي تم تنفيذه على أمر الواقع هو "البيت بيت أبونا والغرب يطردونا" وآثاره واضحة في المشكلة الفلسطينية، والتي تثبت وتؤكد أن البيت قد يكون جحيمًا أرضيًا نسعى لاسترداده مهما طال العمر، ليصير هو جنتنا الأرضية التي نحيا فيه وبه.

الطبلية

عين شمس البيت، ومنارة أمله، وتاج استقباله، وجزيرة تطفو على قلبه، وقطعة سكر تجذب أهله، يلتف حولها الأهل والأقارب والجيران، تتدحرج وتتهلل وتتراقص في الاستعداد للأعياد والمواسم والمناسبات الكبرى، وجودها دليل دفء العائلة وسلامها؛ فهي جوهرة الأسرة، والمنبع الخالد لقوتها، وأساس ديمقراطيتها، وسر من أسرار البيت، تشارك في التمهيد المبكر للاجتماعات والحروب والمعاهدات، تبتسم وتسطع عصر يوم الجمعة، وتجلس صابرة تنتظر الغائب والمتأخر، وتصبح معلَّمة لأبناء البيت بعد الفراغ من استخدامها في تناول الطعام.

الحمد لله أنني شخص متربّي على طبلية أبي، أي أنني شخص شبعان وابن أصل وكريم، ولم أكن أجلس على طبلية لا تخصنا أو لا تعنيني، يضاف إلى هذا أنني عفيف النفس، لا أهتم بفتات الموائد.

وهكذا تفتح الطبلية بطن البيت العربي، وسط هالة حب عميقة، وتقيم أرجلها وقواعدها فيه دلالة على الحب والعشرة والرجولة والشهامة والأصالة والتربية الطيبة.

والطَّبْلِيَّةُ تنسب إلى الطَّبل، وجمعها طبالي، وتعني أيضًا إلى الخِوَانُ (بكسر الخاء وضمها) وهوما يُؤكل عليه، والجمع: أَخوِنَةٌ، وخُونٌ،

وأَخاوِينُ، أي ما يُوضع عليه الطَّعام وأدواته، ولا يُسمَّى مائِدةً إلاَّ إذا كان عليه طعام (مؤنثة وتذكَّر)، لذا يقال: نصَب خِوانًا كبيرًا طوال شهر رمضان، لكن يظل لفظ طبالي أجمل على طبلة الأذن؛ لما لها من وقع في النفوس برائحة الأطعمة المشبعة التي تحملها، فتمتلئ البطون الجائعة، فنجد البعض عندما ينهض شبعان من على الطبلية، ينهض مثقلًا في كسل.

والطبلية قادرة على قراءة ما بداخل الصدور والنفوس لمن يجلس عليها، سواء كان شريفًا كريمًا أو لصًا طامعًا، فإن أخذ أحدًا لقمة لا تخصه دل على أنه لص طامع، وإن مد يده وقام بتوزيع الطعام على الموجودين، ثم انتهى بنفسه دل ذلك على كرم العاطي وحبه للآخر وتفضيله على نفسه، تقف في هذا الأم التي توزع الطعام على أبنائها، وتأخذ من نصيبها وتفرقه على أبنائها وزوجها في حنان وحب، كما أنها دليل على البخل والطمع؛ لذا يقولون في الشام: "ذوقناه الطعمية وقرمش الطبلية"، أي أننا قدمنا له الطعام، ولأنه طماع ولا يكتفي؛ فقد بدأ في التهام خشب الطبلية بعد أن أكل جميع الطعام، وتدل على الكسل أيضًا، فقد شاهدنا كثيرين بعد أن التهموا الطعام ظلوا جالسين أمام الطبلية لا يتحركون.

وإذا كانت الطبلية بدأت تتلاشى من البيت، ويحل محلها المائدة بكراسيها أو ما يطلق عليه السفرة، إلا أنها ما زالت في البيت الريفي أحد الاساسيات، بل وقطعة مهمة من قطع جهاز العروس، حيث يتم تناول الطعام عليها في معظم الأوقات، وكذلك تقطيع الخبز –القمح– عليها قبل خبيزه، وفي هذه الحالة تسمى الطبلية "بالرقية"؛ لأن الأرغفة توضع عليها في حلقة دائرية.

وعندما تتحرك الطبلية أو تتدحرج كي يتم نصبها في صالة البيت، يبدأ طقس آخر، حيث يحين وقت الغداء أو العشاء، يصاحبها أغنية لم نعد نسمعها تقول "يا طبلية بيتنا ما يحلى الأكل عليكِ إلا إن كنا نتلم حواليكِ"،

وهي هنا تعكس اهتمام أهل البيت بتناول الطعام جماعة وليس كل على حدة.

وكانت الطبلية بعد أن تفرغ من مهامها في إشباع بطون أهل البيت، تمسح وتنظف، ثم تبدأ في مهمة كبرى وهي مهمة تعليمية، حيث نبدأ في مذاكرة دروسنا عليها، وهي تستطيع أن تلم حولها كل طلاب ودارسي العلم في البيت باختلاف مراحلهم الدراسية، كلٌ يأخذ قطعة منها، دون أي إزعاج، لكن أمي كانت دائمًا تضربني وتقوم بتوبيخي وقرص أذني؛ لأنني كنت أحب الشخبطة والرسم على قاعدة الطبلية الخشبية أثناء تأدية واجباتي المدرسية، والسبب في ذلك أنها كانت تخشى غضب أبي؛ لأنه عندما يرى هذا سوف يعلم أنني الذي فعلته، وربما يقوم بقلب الطبلية أثناء تناوله الطعام، وربما يقلبها لسبب مطلب من مطالب أمي لم يحن وقته أو غير مستعد للوفاء به، أو لشيء لم يعجبه في الطعام، ومن هذا جاء التعبير الشهير "قلب الطبلية"، أو "قلب الترابيزة" أي أن كل شيء كان ممهدًا للقيام على الطبلية قد انهار وضاع وانسكب، وهو مصطلح سياسي يدل على عدم الوفاق أو عدم إتمام الاتفاقيات، وربما يرجع ذلك لعدم جودة الطعام الشهي، ولم تكن ممتلئة بالزفر الذي قدم على الطبلية قبل بدء المباحثات والمفاوضات.

ولأن الطبلية مرتفعة عن الأرض بحوالي ثلاثين سنتيمتر، فقد أُستخدِم أسفلها في الكثير من الأشياء التي يخشى أن تحدث فوقها أمام أعين الجميع، ويقال هنا: "من تحت الطبلية"، وكان ذلك يحدث في عصر يوم الجمعة المشهود، حيث تضع أمي طبق الزفر، سواء لحم أو فراخ، تصاحبه لهفة وترقب وحيرة منا في انتظار دورنا، لكني أعتقد أن السبب الاساسي لهذا المصطلح، هو الأم ذاتها، فهي عندما توزع النوائب –بعد أن تقدم لزوجها قطعة كبيرة مبررة ذلك بتعب الأب وشقاه طوال أيام الأسبوع– فهي لا تحب أن يرى أحد من أبنائها ما قدم لأخيه؛ خشية أن يعتقد أنه أخذ أقل منه

وتقوم معركة بين الأخوين، وبالتالي انتقل هذا المصطلح إلى الحياة العامة، فنسمع مصطلح "من تحت الترابيزة" في الكثير من شئون حياتنا، والتي نريد أن لا يراها أو يعلمها أحد، وهي –دائمًا– مسائل مشينة لا نحبها أو يحبها العرف السائد.

ومن مميزات اللمة حول الطبلية، تعلم أسس الديمقراطية الصحيحة؛ لأن الجلوس حولها لا يفرق بين أحد، والجميع متساوون في الجلوس عليها، ولم يكن يوجد فرق إلا لأبي –أحيانًا– أو لأحد الضيوف، عندما نضع شلتة أو كرسي الحمام له، وهو كرسي صغير من الخشب يرتفع عن الأرض مسافة صغيرة؛ وذلك لتميز مكانته، عدا ذلك فجميعنا جالسون على الأرض سواسية.

ولأن هذا التساوي شرط أساسي تفرضه طبيعة تكوين الطبلية؛ فقد تعلمنا الكثير من خلال الجلوس حولها، فبعد تناول الطعام عليها، يبدأ وقت جميل لاحتساء الشاي، ومعه كانت تتناثر الحكايات التي يشارك ويستمتع بها الكل في دفء عائلي وحب أسري، ومنها –أيضًا– تعلمنا تقاليد المحبة وتقدير الآخر والاهتمام به، وتعلمنا انتظار الغائب وإفساح مكان للمتأخر، والكل يشارك حول الطبلية في الحوار، والكل يدلي برأيه أيًا كان عمره أو ترتيبه في الأسرة، فالطبلية قادرة على تبادل الآراء ومناقشتها، بل وحل المشاكل في تلك الجلسة الحميمية حولها.

وإذا كانت الطبلية تفرض جوًا من البهجة والحب للأسرة، فإن أجمل أيام بهجتها الكبرى، في مشاركتها في تجهيز كعك وبسكويت عيد الفطر، حيث كان يتم ربط ماكينة العجين في أحد أطرافها، وتبدأ في الدوران، ويخرج منها البسكويت ويتم رصه عليها قبل أن يوضع في الصاجات.

كما أن الطبلية قادرة على خلق متعة كبيرة إذا جاءت في الأحلام؛ فدلالاتها كثيرة ومتغيرة، لكن بمسمى المائدة وليس الطبلية، فهي تدل على الإسلام، وتدل على اليسر بعد العسر، والطعام الطيب على المائدة، دليل على كثرة وجود ما يأكل عليها، أو مشورة يحتاج فيها إلى أعوان، وربما دلت المائدة لامرأة رجل.

وسنلاحظ أن جميع هذه التفسيرات، قد ظهرت في سورة المائدة في التنزيل الحكيم "اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ".

وأحد أسباب دائرية الطبلية وصنعها من الخشب، أنَّ لمس الخشب يطرد سوء الطالع، شرط أن يكون مستديرًا غير مطليّ؛ لذا فإن الكثير من موائد المفاوضات تكون دائرية، وعندما تصبح ذا أبعاد أخرى كالمربع أو المستطيل تفشل المفاوضات، ودليل هذا فشل كل مفاوضات القضية الفلسطينية يرجع إلى أن كل موائدها ليست دائرية، وربما صنعت من مادة غير الخشب، وأرجو أن ينبههم أحد لذلك.

والآن روح طاعون الوحدة والتفتت والبعد تهاجم طبليتنا العربية، وباعدت بين أعضائها سواء من باب التحضر أو البعد أو الخصام أو الجفاء، ولم تعد لمتها محببة، فأصبحت الطبلية العربية كئيبة عابثة مهملة، وكوكب ساطع أصابه الخسوف، وأنتظر أن يسطع مرة أخرى، وتجمع المحيط للخليج، والشمال للجنوب، وتصبر على الغائب والمتأخر، وأن تكون ممتلئة بالزفر أيضًا.

الإبرة

حادة، واخزة، قلقة، رشيقة، ناصحة، جامعة الشمل في هدوء، وواصلة المقطوع دون قلق، وساترة الحال رغم هشاشتها، شامخة في كبرياء نادر رغم رهافتها، أداة نجاة وإنقاذ عندما تتفرق بنا السبل، وناصحة وتصلح الحال إن كان فاسدًا، واختبار دقيق وحاسم في اختيار الزوجة واختبارها.

لعل أخطر ما فعله العصر الحديث، أننا لم نعد نرى الإبرة في يد نسائنا، كما لم نعد نراهن يقمن بتفصيص حبات الثوم؛ ذلك لأن الإبرة مثلها مثل الكثير من الأدوات المنزلية التي بدأت تتلاشى أو لم يعد لها مكانًا في المنزل الحديث أو بين يدين نسائه، أو لم يعدن يهتممن بوجودها الآن، مع أن تاريخ الإبرة مغروز وواخز وراتق في تاريخ الإنسانية.

فمنذ البداية، وفي عصور قديمة للإنسانية كانت الإبر تصنع من عظام الحيوانات أو أشواك الأسماك أو أغصان بعض الأشجار والنباتات، وكان ذلك قبل أن تصنع من المعدن.

والصينيون هم أول من استخدم الإبر المعدنية، قبل أن تنتقل للغرب، وتنتشر في كل العالم، وقد بدأت صناعتها في مدينة "نورمبرج" بألمانيا في القرن الرابع عشر ميلاديًا، وأول قضيب صنع من الصلب آليا كان في 1785م، وصنع للإبرة ثقب في عام 1826م.

ورغم شهرة الإبرة كأداة للخياطة أو الحياكة أو خياطة جلود الأحذية، فهي أَداةٌ أحدُ طرفيها مُحَدَّد والآخَر مثقوب، يُخاط بها، وهي رفيعة الشكل وتكون بأطوال وأحجام مختلفة، منهما ما يصل طوله لأكثر من عشرين سنتميترات مثل: إبر الأطباء أثناء العمليات الجراحية، ومنها ما يصل إلى طول الذراع، والتي يخيط بها الجلود والبراذع للحيوانات.

والإبرة رغم ندرة رؤيتها الآن إلا أنها تدخل في كل تفاصيل الحياة، فالإبْرة لدى العَقرب أو النحلة: ما تَلْسَع به وتدافع به عن نفسها، والإبْرة من المِرْفَقَ أي الزراع: طَرَف العظم الناتئ عند ثَنْي الذراع، وإبرة المِحْقَن هي إبرة يُغرز طَرَفها في الجسم لينفذ منها الدواءُ إليه، وإبْرة آدم نبات تزينيّ مُعَمَّر من فصيلة الزنبقيَّات، وإبرةُ الفونغراف هي ما تَمُرُّ على أثر الصوت المسجَّل لتعيده، و"بَيْت الإبْرَة" هي البوصلة التي ترشدنا في البحار والصحراء، وإبرة بابور الطهي التي يتم تنظيف الفونية بها وهي التي تقوم بتوزيع الجاز، ووَخْز الإبَر هو الإيذاء المتتابع في خفية، وعندما أصبحت الإبرة علاجًا صارت تلقب وتشتهر بالإبر الصينية، والتي تعتمد على غرز الإبر الدّقيقة في نقاط محدَّدة في الجسم للعلاج من بعض الأمراض، كما أن كثيرًا من الحشرات لديها إبر للسع أو الدفاع بها مثل: الدبابير والنحل.

وفي السياسة الحديثة يقال "سياسة وخز الإبر" ويعنى بذلك سياسة العداء في الخفاء تخز وخزًا من غير أن تسيل دماء، وكانت واضحة بين أمريكا والاتحاد السوفيتي خاصة أثناء الحرب الباردة في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، كما نراها في حياتنا اليومية بين الحماة وزوجة ابنها، والخروج من "ثقب الإبرة" للدلالة على المهارة والخفة والنجاة، ولدقة ورهافة الإبرة يقال عن المرأة الهادئة التي تعيش في حالها "لا تسمع رنينًا لها" أي لا تسمع لها أي ضجيج أو صوت في بيتها، وتقال أيضًا عن المرأة النظيفة والهادئة والتي لا تثير المشكلات، ولصعوبة المهمة واستحالتها يقال: "يبحث عن إبرة في كومةِ قش".

وإذا كان يقال عن شكل الإبرة أنها قاسية، وتعيش بمفردها، ولا تحب الصداقة ولا تكف عن الوخز؛ لذا يطلق في الحياة العامة لفظ "رجل إبرة" أي ثقيل وكثير الشكوى والإلحاح أو يكون كثير الإيذاء للغير خاصة في الخفاء، بينما في الماضي كان يعتبر هذا سبابًا للمرأة، فإذا رأت امرأة، امرأة أخرى رفيعة ونحيفة جدًا، تقوم بهجائها بأنها "امرأة إبرة".

وللإبرة الكثير من الاعتقادات الشعبية قديمًا، فقد كان يحرم بيع الإبر بعد صلاة العصر في مصر، حتى لو دفعت أكثر من قيمتها بكثير، والسبب في ذلك الاعتقاد بأن الملائكة الموكلة بتقسيم الأرزاق تهبط بعد العصر، فإذا كان الإنسان في يسر وهناء زادت سعته، وإن كان في بؤس وشقاء أعطته على قدره، كما يعتقدون أن حرفة الخياطة من أفقر الحرف؛ لذا يكرهون أن تراهم الملائكة على هذا البؤس؛ فترزقهم على قدر بؤسهم، فحرموا من أجل ذلك الخياطة وبيع الإبر بعد العصر.

كما كان يعتقد بأن الخياطة بالليل تؤذي الأموات؛ لذا يكرهون أن يخيطوا شيئًا بالليل، وفي بعض القرى بالريف يتشدّن النساء في ذلك؛ فلا يعرن إبرة لأي سبب بعد العصر، فإذا دعت الضرورة إلى ذلك وضعتها المعيرة فوق رغيف من الخبز، وأعطته لطالبة الإبرة؛ فتأخذ الرغيف وعليه الإبرة، ولكن لا تمسها بيدها مباشرة.

و"الإبرة الغشيمة" مصطلح شعبي عن الإبرة التي لا ثقب لها، وهي في الأصل إبرة أخطأت الآلات التي تصنعها فمرت عليها من غير أن تثقبها، وعندما كثر الطلب عليها كان تجار الإبر يستوردونها بتوصية خاصة منهم، والسبب في الإقبال عليها اعتقاد العجائز أنها تبطل عمل السحر، فهن يأخذنها ويلففنها في خرقة، ويضعنها في حجاب من جلد؛ فتمنع العين والسحر.

وفي الغرب يختلف الأمر بالنسبة للإبرة عن الشرق، حيث يشتد الإقبال على شراء الإبر التي تخاط بها الأكفان؛ وذلك لإلقاء أذى من السحر على الآخرين، فإذا وضعت إحدى الإبر تحت صحن أحد وهو يأكل، يصاب بالسُّل الحاد المميت.

بينما على الفتاة التي تتمنى الحصول على زوج أن تقوم بغرز "سبع إبر" في شمعة جديدة، بعد إشعالها، وتدعو السيدة العذراء إلى إجابة طلبها طوال مدة الاشتعال، فإذا فعلت ذلك؛ فلم تظفر بقلب الرجل الذي تتمناه، فهي على الأقل تجعله عاجزًا مع النساء الأخريات.

ولا يهب المرء إبرة لشخص ما دون أن يخزه بها، وإلا خشي فساد العلاقة بين الواهب والموهوب.

ولدقة الإبرة يطلقون عند تجهيز العروس عبارة "لديها كل شيء من الإبرة للصاروخ" أي لا ينقصها شيئًا من أدوات بيتها...

وكانت بعض الحموات يخترن الفتيات لأبنائهن بعد أن تشاهدهن وهن يقمن بإدخال الخيط في ثقب الإبرة، وخاصة صغيرة الحجم ذات الثقب الضيق، حتى تعلم مدى قوة نظرها ودقته، كما تترك لها بعض الملابس الممزقة أو بها قطع وتحتاج إلى الخياطة، حتى ترى الغرزة التي تخيط بها عروسة الابن، فإذا كانت الخياطة سيئة ومعيبة تقول عنها "بين الغرزة والغرزة ترقد العنزة" وهي تقصد بذلك أن غرز الخياطة ليست منسجمة ولا دقيقة، فبين كل غرزة وأخرى فضاء كبير يتسع لجلوس العنزة ونومها.

ورؤية الإبرة في المنام تدل للعازب على الزواج، وللفقير على ستر الحال، ومن يرى خيطًا فيه إبرة فإن شأنه يلتئم، ويجتمع له ما كان متفرقًا من أمره، ولو كسرت إبرته أو أخذت منه، فإن شأنه يتفرق ويفسد أمره، والإبرة

هي المنصحة، والخيط هو الناصح، وإن خاط ثيابه استغنى إن كان فقيرًا، واجتمع شمله إن كان مبددًا، وانصلح حاله إن كان فاسدًا.

ومن المعروف أن "الإبرة التي بها خيطين لا يحاك بها" وهو مثل يضرب لتعدد الرؤوس والخوف من فساد العمل بكثرة الأوامر المتناقضة، بينما في الصبر يقال "التركي يحفر البير بإبرة" وهو يدل على عقيدتهم في التركي بأنه صبور على نيل غرضه يصل إليه في دأب وصبر، ولو لم يجد وسائل متوافرة استطاع أن يتخذ أي وسيلة مهما صغرت، ويكمل نقصها بصبره والثبات على قصده.

ستظل الإبرة رغم عدم رؤيتها الآن، موجودة ومؤثرة في العقل والوجدان الإنساني، فهي ترقص وتغني في رشاقة وكبرياء، وهي تحيك أو تخيط فستان الزفاف أو تنجيد الجهاز للعروس، كما سنراها تبكي في حزن شديد، وهي تخيط أكفان الراحلين وأجساد المصابين.

وفي الختام، أتمنى أن نلج من خرم الابرة إلى الجنة من تلك الحياة التي امتلأت فيها حياتنا بالوخزات الشائكة الكثيرة، تأكيدًا لقول الله – عز وجل– في كتابة الكريم "ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل من سم الخياط".

البابور

سلطان المطبخ دون منازع، طربوشه المشتعل تاج على رأسه ودليل قوته وجبروته وسطوته، والكباس في جانبه سيف فارس يستعد لخوض المعارك والغزوات، فاتحًا قلب المطبخ بأشهى المأكولات وألذ الأطعمة، المؤثر في يوم الغسيل الشهير، وصاحب الصوت النادر والرائحة الخالدة، صوته سيمفونية ضد الفقر والجوع والبرد القارس، الالتفاف حوله طقس بهجة مقدس لصنع المحشي أو قلي الأسماك ولب البطيخ أو شواء البطاطا أو للتدفئة في ليالي الشتاء الطويلة، تعميره وتشغيله: امتحان قاسٍ لاختبار العروس الجديدة.

إنه "بابور الجاز" حفيد مصباح علاء الدين والابن الشرعي للكانون والأب الروحي للبوتاجاز، وجوده في البيت طاقة جبارة وقوة لسيدة البيت؛ فهو صديقها الوفي الذي ترعاه ولا يمكن لها أن تتخلى عنه، وعندما يتعطل تنتابها الحيرة والقلق والبؤس أيضًا.

هكذا كان البابور أو الباجور في بيتنا كما كنا نلفظها، وكانت أمي تملك منه ثلاثة، اثنان من الحجم الكبير، وآخر بشرائط وهو أحدث نوعًا، وكان القلق ينتابها خوفًا من عودة أبي ويكون الطعام لم يُعد بعد، وهذا يغضبه ويصبح اليوم "هباب" علينا جميعًا، وهو اللون الأسود مثل الذي تتركه نيران البابور في قعر أواني الطهي.

والبابور من أهم القطع في جهاز العروس، وكان الزوج ينتقي الزوجة الماهرة في إعداده وإشعاله؛ وذلك لأن إشعاله كان يمر بعدة مراحل ليست سهلة: أولها تعميره بالجاز، أي أن تملأ خزانه بالوقود، بعدها تضع بعض قطرات من السبرتو على رأسه، ثم تشعل عود ثقاب وتركه فترة حتى يسخن قبل أن تعطي له "نَفَس بالكباس" أي بعض من ضغط الهواء؛ كي تضخ الجاز فيه ويبدأ الاشتعال.

ومكونات البابور هي الخزنة أو البدن وهي من النحاس والتي تعمر وتملأ بالجاز، وتحملها ثلاثة أرجل حديدية، تلك التي توضع عليها الطاسة والتي تحمل أواني الطهي، والبابور به ثلاث فتحات: الأولى لتعبئته بالجاز، والثانية: المحبس أو البلف لتفريغ ضغط الهواء ويستخدم لإطفائه، والثالثة: كباس الهواء وهو يستخدم لضغط الهواء للداخل، والفونية وهي التي تقوم بتوزيع الجاز وتجعله مستمرًا في الاشتعال، والطربوش وهو الذي يسيطر على شكل النيران، والإبرة لتسليك الفونية.

وكانت "إبرة البابور" من أهم القطع التي تحرص سيدة البيت على وجودها بعدد كبير، وتضعها في مكان آمن، وبحرص شديد سواء في درج المطبخ أو دولاب النملية.

ومن أشهر أنواع البابور ماركة "بريموس" وهي كلمة تعني "الأول" نسبة إلى بلدة في دولة السويد، اشتهرت بأنها أول وأشهر من قام بصنع بابور الجاز في العالم.

والبابور اختراع مذهل منذ ما يقرب المائة عام، وكان ثورة كبرى في حينه بدلًا من استخدام الكانون المعروف؛ نظرًا لارتباطه بالمدينة وليس الريف، وقد كان معقدًا وسهلًا في آن واحد.

والبابور صاحب استخدامات كثيرة في البيت: فنساء البيت لا يستطعن الاستغناء عنه؛ فهو معهن أثناء يوم الغسيل الطويل والمرهق، يضعن عليه "البستلة وهو وعاء نحاسي عميق" لغلي الملابس البيضاء بالبوتاس، مضاف إليه منظف الملابس الشهير ذو الرائحة المميزة "الرابسو"، وتقطيع الصابون لشرائح رقيقة لتوزيعه على كل الملابس، ثم وضع زهرة الغسيل الزرقاء الزاهية، وتستمر تلك العملية لساعات ويتم تعمير البابور بالجاز كلما خفتت نيرانه.

بعدها يقمن بتسخين الماء لاستحمام أهل البيت، وكان البعض يأخذ البابور معه في الحمام خاصة في فصل الشتاء؛ وذلك لتدفئته، وأيضًا لوضع وزيادة كميات الماء أثناء الاستحمام حتى لا تبرد المياه.

بعد هذه العملية المهمة، ينتقل البابور للمطبخ للطهي، وكان أشهر ما يوضع عليه حلة المحشي، بعدها "طاسة الزيت" وهي تغلي وقد وضع فيها أصابع البطاطس للقلي أو البذنجان أو السمك المقلي أو الزلابية.

أما إذا اجتمعت الأسرة فوق سطح البيت، فكان الذي يتوسط الجلسة "البابور" فيقومون بإعداد شاي وقت المغربية عليه، وهو وقت مخصص للسمر والحكي، بعدها توضع "طاسة" لقلي لب البطيخ أو شواء البطاطا.

وفي الحقيقة أن طهي الطعام على البابور كان يعطي طعمًا مختلفًا عن استخدام البوتاجاز الآن، فرغم صوته المزعج لشدة نيرانه، يظل الطعام له مذاق وطعم مختلف، حتى في إعداد كوب الشاي عن الآن؛ وربما يعود ذلك إلى أن نيران البابور كانت تساعد على طهي الطعام بهدوء وبعيدًا عن الاستعجال الذي نراه في أدوات مطبخنا العصري الآن.

ولا أعرف السر في عشق الكثيرين النوم على صوت البابور، هل

لشعورهم بالدفء أم بسبب ضجيجه الذي يشعرهم بالحياة وحميميتها ودفئها؛ فينامون مستريحي البال؛ وربما يكون صوته مخدرًا للأعصاب فينامون.

فقد كان الكثير من الناس يحبون النوم على صوت البابور وخاصة في ليالي الشتاء؛ وربما يكون السبب في ذلك أنه يجلب لهم الإحساس بالأمان والونس والدفء.

"أصلح بوابير الجاز– أصلح الفونيا" جملة كانت تملأ أسماعنا بالبهجة والشجن، يطلقها "السمكري" وهي مهنته، وهو رجل يمر بدراجته أو على أقدامه في الشارع وقد وضع عليها "عدة" تصليح البابور، وكانت نساء الحي يتركن لديه البابور، ويجلس في أحد أركان الشارع أو الحارة يصلح ويلحم ويسلك لهن البابور، وقد اندثرت أيضًا تلك المهنة الآن؛ نظرًا للتطور وانتشار البوتاجاز وخلافه.

ومن أشهر المهن التي استخدمت البابور بعيدًا عن المنزل، مهنة "المكوجي" في دكانه، حيث يضع على البابور المكواة الحديدية الثقيلة، وعندما تسخن بشدة يقوم بكي الملابس.

والبابور تختلف مسمياته باختلاف البلدان العربية؛ فنجد في مصر يقولون "بابور أو باجور"، وفي بلاد المغرب العربي والشام نجده يطلق على "الباخرة"، بينما في اليمن يطلق على "السيارة".

ونحن في مصر دائمًا نطلق عليه اسم الباجور وليس البابور، حيث يقوم الكثيرون بتعطيش الباء جيم، فيقولون الباجور؛ لذا نجد باجور الزلط وهو الذي يقوم بتسوية وهرس أسفلت الشارع، وباجور السكة الحديد أي القطار، والباجور مدينة بمحافظة المنوفية في دلتا مصر، وقد سميت بهذا

الاسم نسبة إلى التسمية التاريخية بيجور، ومن أشهر أبنائها الشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الجامع الأزهر في الفترة من 1847–1860.

ومن أشهر الأقوال التي كان البابور سببها قول: "الدنيا فونية والزمن كباس" أي أن الدنيا مثل فونية البابور أحيانًا سالكة وأخرى مسدودة، وتحتاج كل فترة نفس جديد أو تحايل عليها بالضغط بالكباس كي تستمر في السير، وكان يقال: "رجل صوته عالٍ مثل البابور" أي صوته مزعج، ويقال: "رجل لا يوجد لديه جاز أو انتهى جازه" وهو يقال لمن لا يشتغل عقله أو غبي.

وقد استخدم "بابور الجاز" في العديد من الأعمال السينمائية، خاصة عندما تختنق البطلة نتيجة أحد مواقفها الحياتية البائسة، وتقوم بإفراغ جازه على جسدها وإشعال النار في نفسها، كان هذا المشهد دائمًا يؤلمني، إلا أن أشهر الشخصيات التي حصل من خلالها على شهرة واسعة شخصية "حسن وابور الجاز" والتي جسدها الفنان الراحل "نجيب الريحاني" من خلال فيلمه الشهير "لعبة الست".

كذلك تظل أغنية الموسيقار "محمد عبد الوهاب" الشهيرة: "يا وابور قولي رايح على فين" من كلمات الشاعر أحمد رامي؛ فإن البابور هنا يعني القطار البخاري، وليس البابور المنزلي.

وسيظل عقلي الصغير يتذكر أن منطقتنا العربية هي بابور بدن العالم؛ لأنها ترقد على ثلثي بتروله، ولا أعرف السر في انطفاء شعلة لهيب البابور العربي الآن، فربما يحتاج إلى "نفس" أي ضغط وحماس جديد وقوى بكباس "الشعوب العربية التي تبحث عن التطور والتحقق والظهور على سطح الأرض، وربما تكون "فونية" الوطن العربي مسدودة، تحتاج إلى "إبرة" كي تسلك طريقة لخروج هذا المارد مشتعلًا من باطن الأرض، ومفجرًا كل الطاقات.

الحبل

مرعب وخانق ومخادع ورقيق وناعم وهادئ، قادر على اللف والشنق والجر والسحب والإنقاذ، يبدو هادئ وديع وهو مركون وملموم، وقوي ومتين وهو مشدود، وقاسٍ وهو ملفوف على الرقاب، ومخادع وهو منصوب فخًا، ويصبح مشكلة وهو معقد ومختلف.

يحب الاعتصام والائتلاف ويكره الفرقة والاختلاف، مرن يصلح للربط واللف والدفع والقيادة، ودائمًا يتحرك بنعومة وسرية ومرونة، ساحبًا خلفه الإنسان: كمقطورة للهموم والمشكلات والفقر والبؤس، ومع ذلك يحاول أن يربط الأفكار ويصل الأرحام.

اختلط الحابل بالنابل في شئون حياتنا، واضطربت الأمور واصبحت معقدة أكثر من اللازم، وتشابكت كل حبال الأشياء من حولنا، وأصبحت معقدة، وإذا حاولنا سحب الحبل من أول طرفه كي نفكه فهذا إنجاز في حد ذاته، إلا أننا –نادرًا– ما نفلح في العثور على أوله أو الوصول إلى آخره.

وهذا هو حالنا، مربوطون جميعنا بأحبال دائبة ومرخية وشديدة الخشونة ومشدودة، بعضها يشنقنا ونكون نحن السبب، والآخر يسحبنا إلى الكثير من المتاهات التي أوقعنا فيها أنفسنا، مرة باسم المدنية، ومرة بسبب الأموال أو بسبب ضغوط الحياة.

ولا يوجد شخص في العالم لا يسحبه حبل، أو غير مربوط في عنقه حبل، فهو قادر على التغير والتبدل، فالحَبل اسم وجمعه حِبالٌ وأَحْبالٌ، وهو ما فُتِلَ من لِيفٍ ونحوه لِيُرْبَطَ أو يُقاد به، وهو يظل حبلًا إلى أن يقوم بفعل ما، سواء سحب أو جر أو ربط أو لف، أي أنه تختلف مسمياته بما يسحبه خلفه، فيقال: حَبَلَ المتاعَ أي شَدَّهُ بِالحَبْلِ، وحبَل فلانًا أي قيَّده، وحبَل الصَّيْدَ أي نصَب له شَرَك وصاده به، وحبلتِ المرأةُ الرَّجلَ أي أوقعته في شراك حبِّها، ودار حابلُه على نابلِه: تداخل أوّله بآخره، وفلانٌ يَحْطِبُ في حبلِ فُلانٍ: يُعِينُه وينصُرُه، وَوصَل فلان حبل فُلان: زوَّجه ابنتَه، وأرخى الحبلَ: تبسَّط، واضطرب حبلُه: لم يعد يسيطر على نفسه، وانقطع حبلُ الحديث: اعترضه عارض، وترَكَ الحَبْلَ على الغارب: أي ترك الأمرَ يأخذ مجراه دون تدخل منه، وتعلَّق بحبال الهواء: رجا أمرًا صعبًا أو مستحيلًا، وحبل الكذب قصير أي لا يدوم وسرعان ما ينكشف، حبله طويل أي متباطئ ومتوانٍ، وقطَع عليه حبلَ أفكاره: منعه من متابعة تفكيره، وحال دون تسلسل أفكاره، ومَدَّ له الحبلَ: صبر عليه، ووصل حبلَ وُدِّها: وصل ما يربطه بها، ويلعب على الحبلَيْن: انتهازيّ، يحاول الإفادةَ من كلِّ جهة، وقطع حبلَ المودّة: بداية الاختلاف والشجار، وحبلُ الوريد وهو عِرْقٌ في العُنق، ويُضرَب به المثل في القرب وفي التنزيل العزيز: "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ".

لكن حبل غسيل أمي يظل مشدودًا في ذاكرتي وهي ترتب الغسيل بما يتناسب مع أفكارها: الملابس البيضاء الخاصة برجال البيت، ثم الملابس الملونة الطويلة، وفي النهاية الملابس الداخلية لحريم البيت، كنت أشاهد أمي وهي تعمل ذلك بيسر وسهولة، حتى حبل أفكارها وهي جالسة بعد عناء اليوم لم يكن يقطعه إلا مطالبي أنا وأخوتي، وكانت تعرف أول الحبل وآخره، فهو لم يتغير إلا من ترتيب أولويات بيتها، لكن حبل أفكار أبي كان يختلف بالتأكيد، فكان يقول: إن سحب أفكار روايته يأتي له بيسر وسلاسة، بينما حبل أفكاري أنا بطيء وخاصة عندما كنت أذاكر دروسي، في حين أن

جدتي كانت الوحيدة القادرة على فك كل الحبال المعقدة والمشتبكة في صبر وخبرة ومودة وعشرة؛ ولهذا السبب كانت قادرة على لضم وحل كل المشكلات العائلية.

وكانت حبال صوت أمي تقطع وهي تصرخ عليَّ لمذاكرة دروسي، وذات مرة حاولت سحب حمار حارون بقوة فقام برفسي في بطني، ولا أنسى حبل أمسكته ذات يوم فاتضح أنه ثعبان، وحبل ربطت به كلب في شجرة على الترعة، وعندما عدت له في الصباح وجدته جثة هامدة بسبب الاختناق.

والحبل دائما يترك حز أو حزز "أثرة على الجلد" لو ربطه على وسطك أو تركته على الأرض، وهذا الحز دائمًا يكون مؤلمًا، نشاهده بقوة في حبل الفقر الخشن الذي يخنق أعناق البشر وبطونهم وخاصة شعوب العالم الثالث، بينما اللعب على الحبل تجيده دولة مثل إسرائيل تليها أمريكا، بينما لعبة "شد الحبل" تلك اللعبة التي كنا نستمتع بها ونستعرض قوتنا، نجدها واضحة في حقب التاريخ المختلفة، أقربها في القرن التاسع عشر بين فرنسا وإنجلترا، ثم بين أمريكا وروسيا، وهو ما يدعوهم لأن يتركوا –أحيانًا– الحبل على الغارب لبعض الأنظمة المناوئة إليهم حتى يشنقون أنفسهم.

وأكثر من يستخدم الحبال في حياتهم اليومية الصيادون ومتسلقو الجبال ومستكشفو المناطق الجديدة، والرياضيون وأعضاء الكشافة وعمال المسارح، وعشماوي: ذلك الرجل الذي يقوم بشنق المجرمين، ويقال إنه لا يلف حول عنق المتهم حبل النهاية إلا مرة واحدة، وإذا اضطر إلى استخدامه مرة أخرى فهو يتشاءم.

وأمهر من يتقافز على الحبل لاعبو السيرك، ثم السياسيون بوعودهم الكاذبة، والاقتصاديون بنظرياتهم التي لا تشبع احتياجات الفقراء.

ورغم صعوبة الحصول على حبل خاصة في مشاكلنا الاقتصادية أو الاجتماعية المزمنة، فإن المشي على الحبل او الرقص على الحبال والذي يتميز به السياسيون ثم النصابون، ليس من السهل الحصول عليهم، مثلهم مثل ألعاب الحاوي حين يقوم بتقييد أحد المتفرجين بالحبال بقوة، ثم يحرره منها بكل خفة، وهو ما يعرف في علم السياسة "بسياسة شد الحبل".

والحبل يختلف من ثقافة لأخرى، فلدينا في الشرق يقولون: "اللي تقرصه الحيّة يخاف من الحبل"، و"اللي يربط في رقبته حبل، ألف من يسحبه"، "وكل عقدة وليها حل"، وعندما يأتي في الأحلام فهو ميثاق، وعزّ وجاه أو مكر وخديعة أو سحر، بينما الحبل من السماء هو القرآن أو الدين.

وفي الغرب يختلف الأمر؛ فنجد أنه في الأحلام ينظرون للحبل السري على أنه إشارة للارتباط بالأم، وقد يشير إلى العضو الذكري، بينما قديمًا كان يوجد بعض السحرة يمتلكون حبالًا قادرة على سجن الرّياح، فإذا حلّت العقدة الأولى حُررت ريح غربية خفيفة، وإذا حُلّت العقدة الثانية، حرّرت ريح شمالية عنيفة، وما تكاد الثالثة تحّل حتى تطلق أكثر العواصف هولًا، وإذا امتلكت قطعة من حبل المشنوق؛ فهو يشفي، بينما كان اليابانيون يرون أن الحبل إذا ضفر مع قش الأرز أصبح سحريًا، ويمكنهم به غلق الأماكن المقدسة حيث يمنع التأثيرات الشريرة والأرواح الخبيثة والشقاء من بلوغ المعابد، وفي أعياد السنة الجديدة تحرق الحبال في طقس احتفالي وتستبدل بها حبال أخرى يدوم سلطانها عام كامل.

وصناعة الحبال تتميّز ببساطتها وغرابتها، وهي قديمة جدًا، ولكنها الآن تقاوم الانقراض، وأتذكر هنا ذلك الرجل الذي كان يجلس يفتل الحبال من ليف النخيل في بلدنا "ديروط الشريف" بصعيد مصر وقد ربط طرف الحبل بقدمه والطرف الآخر يقوم بتضفيره بيده، يحرك أصابعه للأعلى والأسفل في مشهد يدعو للانبهار.

كانت تلك الحبال من الليف خشنة الملمس تستخدم عادة في ربط وتحزيم القفف التي تحمل لنا نحن أهل مصر بالزفر والسمن، أو بالبلح نصيبنا من ثلاث نخلات كانت أمام بيت عمتي، وقد تلاشى ذلك الآن، لكن تلك الحبال الخشنة ظلت مرتبطة في مهنة المعمار، حيث يتم ربط السقالات بها قبل ظهور الشدات المعدنية.

والآن، جميعنا متعلقون بالحبال الدائبة في تلك الحياة، حبل تربية الأطفال وحبل المصروفات المدرسية، وحبل الأقساط، وحبل المشكلات والهموم، غير الحبل الخشن الذي تفرضه علينا الأنظمة الحاكمة، لكني وسط كل ذلك أحب أن أذكركم بلعبة "نط الحبل" التي استمتعنا بها ونحن صغار، وهي لعبة دون تكاليف أو مساحة مكان، كما أنها مفيدة للجسم، كما أتمنى أن نعود إلى أرحام أمهاتنا؛ كي نصل الحَبْل السُّرِيّ، حيث ينقل الغذاء إلينا، ويخلصنا من الفضلات، دون عناء ودون تعقيد ودون جر أو سحب، وإذا لم نفلح في ذلك، فما علينا ألا أن نسحب حبل الوداد، ونصل ما قطع من أرحامنا، ولكل الأشياء والأشخاص في حياتنا، وحتى ينعدل ويشفى الحبل الشوكي الذي يصلب ظهورنا، وحتى يتسنى لنا أن ننفذ قول الله تعالى، وكما أوصانا "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا".

الحصيرة

بشوشة، وطموحة، وجاذبة، ومتسعة، واثقة بنفسها، ومتماسكة بقوة رغم رقتها وضعفها، قادرة على الاستحواذ والضم والثورة، بساطتها سر من أسرار الكون، كريمة في خجل، وتحسن استقبالك في ودّ وبشر، ومع ذلك قادرة على طرد ذوات الدم البارد والعابس والثقيل.

ملكة المجالس المتسعة، نسيج أسطوري وحكاية حب للأرض التي صنعت منها، تتشكل كما تريد: مفروشة ومضمومة ومعلقة ومسقوفة، رفيقة الأنبياء والزاهدين والساجدين والموتى، متمسكة بالتراث والهوية في صبر نادر، وقادرة على طرد الأحزان ومعالجة الفكر والأرق.

بعد أن داهمني الحزن بقسوة خلال الفترة الماضية، لم أجد غير الحصيرة تستقبلني كي أجلس عليها، وأبدأ في إخراج أحزاني وترتيبها حزنًا حزنًا، كانت الحصيرة متسعة كبيوتنا القديمة، ومبتسمة في بشر كشمس البكور، وودودة كجدتي، فذكرتني بالهتاف المشهور الذي كنا نطلقه أثناء ثورات الربيع العربي، دليلًا على ما وصلت إلى أموار شعوبنا وأحوالهم، "بلا تحرير وبلا تطهير الشعب صار ع الحصير"، لكن الحصيرة أمدتني بالابتسامة والحماس ونحن نقوم بفرشها في الشارع؛ تمهيدًا لصلاة العيدين الأضحى والفطر، وإن كانت مصنوعة من البلاستيك ذي اللون الأخضر الغامق، تلك الابتسامة التي شاهدتها في أحد الأفراح الريفية وهي تفرش في

الحارة، ويوضع على كل حصيرة صينية متسعة من الفتة واللحم، وبعدها تناولنا أطباق الأرز باللبن في كرم لا أنساه، ذلك الكرم الذي شاهدته وأنا جالس في مَوالد عدة على الحصيرة مستمتعًا بالمدائح النبوية، وبالأجساد وهي تتمايل مع التواشيح وأحتسي الشاي أو القرفة أو الحلبة.

وهكذا تصبح الحصيرة مبسوطة ومفروشة باتساع العالم العربي من الخليج للمحيط، تستقبل الزوار والغرباء والمسافرين والساجدين والمناضلين، في كرم وودّ وبشاشة، قادرة على معالجة الأجساد من الرطوبة والألم، وطرد كل هواجس الفكر وتعكير المزاج، وإزاحة الأحزان التي لا تكف عن غمرنا كل فترة.

ولا يوجد بيت في العالم العربي لم يفرش بالحصير، أو يعلق على جدرانه أو يظلل ويزين سقف قاعاته ودواوينه، سواء كان أصحاب البيت من الأثرياء أو الفقراء؛ فالحصير رمز عربي مائة في المائة، ذو خصوصية للبيئة التي يصنع منها، وهو متوافر في جميع أجواء الوطن العربي.

والمدهش أن كلمة الحصير تتنوع في المعاجم العربية، ما بين الضيّق الصدر، والبخيل المُمْسِك، والسَّجين، والحابِسُ المانعُ من الحركة، والمكان الضيق، ولحم جنب الفرس ما بين الكتف إلى الخاصرة، وملك، ومجلس، وطريق، كما يقال في التنزيل العزيز بسورة الإسراء آية 8 "وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا"، والجمع : حُصُرٌ ، وأَحْصِرَةٌ وحَصَائِرُ، فيقال: "أدَّى الصَّلاَةَ عَلَى حَصِيرٍ".

لكن ما يهمنا هو الحصير ذلك البِساط المَنْسُوج بِطَرِيقَةٍ يَدَوِيَّةٍ مِنْ سَعَفِ النَّخِيلِ وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ، حيث كانت المساجد قديمًا تُفرش بالحصير، كما تُستعمل الحصيرةُ الآن للزينة؛ فهي تُعبّر لدى الكثيرين عن الاعتزاز بالتراث وبالبيئة.

ولأن الحصيرة تستطيع أن تشكلها كما تريد فقد تداخلت في الكثير من أمور حياتنا، فنجدهم يقولون: "حَصِيرْةِ البيت تحرم ع الجامع"، "وحصيرة الصيف واسعة" والمقصود بالحصير هنا المكان ذاته، أي لا يضيق مكان بقوم في الصيف لاستطاعتهم النوم في الخلاء والبراح، ويقولون أيضًا عندما تريد أن تتزوج: "خد الأصيلة ولو كانت ع الحصيرة"، أي تزوج طيبة الأصل ولو كانت فقيرة ليس لها ما تجلس عليه غير الحصير، بينما يتغير الحال، ويقال: "طول ما هو ع الحصيرة ما يشوف طويلة أو قصيرة"، وهو مثل تطلقه النساء إذا هددن بضرة تأتي مكانها في البيت؛ لأنها مالكة أمره، وبالتالي لا يستطيع الزواج بغيرها، بينما تدل الحصيرة على تبدل الحال فيقال: "كان على نُخّ وصبح على حصير، فَضْلْ من ربنا اللي ما يطير" أي أنه أصبح يجلس على حصير فيجب أن يطير من الفرحة؛ لأن ذلك فضل من الله.

كما أن رؤيته في الأحلام تدل على الخادم وعلى مجلس الحاكم والسلطان، ومن رأى أنه جالس على حصير فإنه يأتي أمرًا يتحصر عليه ويندم، بينما الذي يرى أنه ملفوف في حصير فإنه يتحصر أو يناله حصر البول، وقد يدل الحصير على البساط.

ولانتشار الحصير في كل بقع الوطن العربي؛ فنجد بالمملكة السعودية سلسلة جبال "الحصير" وهي جبال جميلة حمراء جرانيتية تكثر فيها الأودية والأشجار الكبيرة، كما يوجد احتفال بمقام "أبو حصيرة" بمدينة دمنهور بمحافظة البحيرة في مصر، وهو حاخام يهودي من أصل مغربي، عاش من 1805 إلى 1880، ينتمي لعائلة الباز الشهيرة بالمغرب العربي، ويعتقد عدد من اليهود أنه شخصية مباركة، وتذكر أحد الروايات الشعبية أنه غادر المغرب لزيارة أماكن مقدسة في فلسطين إلا أن سفينته غرقت، وظل متعلقًا بحصيرة قادته إلى سوريا ومنها إلى فلسطين، وعند عودته للمغرب عبر مصر وتوفي فيها، وقد أوقفت السلطات المصرية هذا الاحتفال منذ عدة سنوات.

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينام على الحصير، ويذكر أن سيدنا عمر قد دخل عليه ورآه نائمًا على الحصير، فبكى، فقال (صلى الله عليه وسلم): ما يبكيك يا عمر؟ قال: رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير قال: أفي شك أنت يا عمر؟ إنما هي نبوة وليست ملكًا، وفي رواية أخرى: يا عمر أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا.

وصناعة الحصر من الصناعات الشعبية القديمة الممتدة في الوجدان العربي، والتي عرفت منذ العصر الفرعوني، وهو يصنع من أشياء البيئة المحيطة بنا، وخاصة من الخوص وسعف النخيل ونبات الحلفا بعد تجفيفه في الشمس، ويطلق على طائفة صناعة الحصير "الحصرية"، ونظرًا لانتشاره فقد قيل: إنه ليس بمصر ما هو اكثر انتشارًا من استعمال الحصر، ويوجد سوق "حي الحصرية" بالقاهرة لصناعته وبيعه، وسوق الحصرية بالإسكندرية، والحصير يمر بصناعته بمرحلتين: جمعه وتجفيفه في الشمس لمدة شهرين تقريبًا ثم وضعه في الكركم لتلينه، وبعدها يوضع على النول ويبدأ في تشبيكه، بعد ذلك يتم صبغه بالألوان الأحمر والأخضر والأزرق ونادرًا أن يصبغ بالأسود، وكثيرًا ما يحلى برسوم وزخارف، ومن بعض أسماء تلك التصميمات: دقي الشمع، والمعقرب، والقلب الخالي، ولا يوضع الحرفي تصميمًا ينقل منه، بل هو على مقدرة كبيرة في حفظ التصميمات المتوارثة، وكان الحصير من أساسيات العروس قديمًا.

والحصير متعدد الاستخدامات، ما بين فرشه في غرف الاستقبال أو على السرير أو الأرض للنوم، أو على المصاطب في الأرياف خاصة النوع المعروف بـ "الإياس"، كما يستخدم للزينة على الجدران كما نراه الآن في المقاهي والفنادق، أو يعلق على الأسقف حيث يمنع الحرارة الشديدة ويجعل المكان رطبًا، ويوجد نوع من الحصير يطلق عليه اسم "السفرة" أو "السرود" وهي دائرية الشكل مصنوعة من الخوص، يجلس حولها الأفراد

لتناول الطعام، ثم تعلق على الحائط بعد انتهاء تناول الطعام، لكن أغرب ما سمعته عن الحصير أنه كان يستخدم كأكفان للموتى قديمًا.

والنوم على الحصير يزيل آلام العمود الفقري، حيث يساعد على تسويتها، ويقضي على الأحلام المرعبة، ويداوي الاكتئاب، ويساعد على الشعور برطوبة الأرض في فصل الصيف، ويدفئك في فصل الشتاء.

ونحن الآن في حاجة للنوم فترة على الحصيرة العربية في البراح الطلق أو الصحراء بعد أن فقدنا عتبات بيوتنا ومصاطبهم؛ كي نطل في السقف ونقوم بعد الثقوب، أو تتجول عيوننا في السماء والملكوت ونقوم بعّد النجوم كما الماضي، وكي تعود الحرية لأجسادنا وعقولنا، ونستطيع أن نعالج العمود الفقري العربي بعد أن أصابه العطب نتيجة جلوسه دون عمل حقيقي أمام شاشات التليفزيون وأسفل التكيفيات في الغرف المغلقة، ونخرج من دائرة الاكتئاب الذي يحاصرنا من مجريات الحياة حولنا، وكي نزيح أحزاننا التي تكالبت علينا وغمرتنا، ولم تعد لها أي بهجة إلا الجلوس على الحصير في الهواء الطلق.

السبرتاية

مايسترو مسك السيرة والثرثرة الأسرية ونميمة العجائز وإفشاء الأسرار، صديقة الجدات والأرامل وأرباب المعاش، تؤنس وحدتهم وتشاركهم حكاياتهم وكلامهم الغارق في رائحة الماضي والذكريات.

ملكة الحكايات، على فتيلتها الواهنة يتم استدرار واسترجاع الماضي وأحداثه، فيمتلئن بالشجن؛ لذا يصاحب لهيبها دموع كثيرة، فهي مسكينة وضعيفة وناعمة وهادئة وصابرة، ومع ذلك فأجمل وأحلى فنجان قهوة في العالم ب "وش" يتم إنضاجه على شعلتها الذابلة الصغيرة.

إنها السبرتاية، تلك المرتكزة على ثلاثة أرجل ممتدة، والتي يصبح أطرافها قاعدة يوضع عليها الكنكة؛ كي لا تقع أو تسقط، وبطنها المكتنز الصغير الذي يمتلئ بالكحول، لديها عين واحدة يخرج منه فتيلة من الكتان لشعلتها، ولها طربوش نحاس، يخمد لهيبها الأزرق الصغير.

وعلى لهيب السبرتاية الواهن، تُصنع أحلى "كنكة بن" أو أحلى "فنجان قهوة"، وهما مسميان يطلقان على أجمل فنجان قهوة يتم صنعه عليها ويمكنك ان تحتسيه في حياتك، وفنجان القهوة المميز يجب أن يكون له "وش" أي وجه على السطح، وهي مهارة لا يتقنها الكثيرون الآن.

فإذا كنت من عشاق القهوة، فأنت لا تتنازل عن فنجانك الذي صنعته على السبرتاية، حيث شاهدت الكثيرين يأخذونها معهم في رحلاتهم وتحركاتهم؛ نظرًا لخفتها وصغر حجمها، مرددين دائمًا عبارة "أحسن فنجان قهوة من السبرتاية"؛ لذا نصف صاحب هذا الطقس بأنه "صاحب مزاج عال" وله طقوس تحضير فنجان بن أو قهوة، حيث يعتز بنفسه وبمزاجه المتفرد أمام الجميع، يضاف إلى ذلك أن رائحة القهوة المعُدة على السبرتاية ذات رائحة مميزة لا يمكن أن تنسى مهما سافرت وتجولت واحتسيتها في أي مقهى من مقاهي الدنيا.

والسبرتاية لا تقدم هذا الطقس منفردة، فيجب أن تكون معها "عدة القهوة" والتي تشمل: علبة البن، والكنكة النحاسية ذات المقبض الخشبي، والصينية النحاسية، والتي يوجد معهما أربعة أو ستة فناجين صغيرة من الخزف الصيني بدون يد للإمساك بها، وتسمى هذه الفناجين "فناجين بيشة" وهي مفضلة عند كبار السن، ولا يوجد معها أظرف وهي الأطباق الصيني الصغيرة التي توضع عليها الفناجين.

وغذاء السبرتاية هو الكُحُول: ينتج من تخمر السكر والنَّشاء، ويعرف بروح الخمر؛ لذا تعرف السبرتاية بـ "الموقد الكحولي" أو "وابور سبرتو"، نسبة إلى معناها باللغة الإنجليزية **Spirit burner = spirit lamp**، ومن السبرتو أي الكحل جاءت كلمة سبرتاية.

ملكة الحكايات

ولا يوجد أحد يستطيع أن ينسى جدته وهي جالسة بعد صلاة العصر على الكنبة المتسعة التي تتسع لأكثر من شخص، وأمامها "عدة القهوة"، حيث تبدأ في طقوسها اليومية، لمتابعة شئون البيت، بعيدًا عن الأب والأم.

ومن هذا الموقع الأثير كانت جدتي تدير شئون العائلة، وتعرف من اقترب موعد إنجابها من نساء العائلة، ومن تحتاج إلى كسوة، ومن لديها ابن يحتاج إلى علاج، ومن تمر ذكرى وفاته، ومن غائب منذ فترة وتشعر بقدومه حيث رأته في منامها، كما كانت جدتي تستغل لهب السبرتاية في تدفئة يدها في برد الشتاء.

وحول جدتي والسبرتاية كانت تلتف نساء الأسرة: أمهات وخالات وجارات، وهي تقوم بإعداد فنجان القهوة لهن على السبرتاية، والجميع ينتظرن دورهن، والحكي والثرثرة مستمران؛ لذا لا يوجد ملل، بجوارهن مذياع صغير تفتحه جدتي على صوت الشيخ محمد رفعت أو أم كلثوم، أو لسماع آخر أخبار الدنيا.

ولقد رأيت حول لهيب السبرتاية الواهن، جلسات التفاوض والاتفاق قبل الزواج وجلسات الصلح بعد الزواج.

مزاج السبرتاية

السبرتاية تلك الصغيرة الهادئة صاحبة اللهب الطيب الضعيف الحنون، فعلى لهيبها الضعيف نتلمس دفء العواطف والحب والحنين بشغف للماضي ولأشخاصه وأنفاسهم التي كانت تحيط بنا، وكذلك يرتبط إعداد فنجان القهوة على السبرتاية إلى الحالة المزاجية العالية التي يكون فيها الشخص، كالرقة والحكي والهمس والابتهاج.

ولا ننسى ارتباط "دلق القهوة" أي وقوعها على الأرض أو سكبها فهو فأل خير وحسن، ولا أعرف لهذا سببًا محددًا، كما أن فنجان القهوة المُعد على السبرتاية لا يكتفي بطقس الحكي أو النميمة النسائية أو ذكريات الماضي للجدات، بل يمتد بعد ذلك لفن "قراءة الفنجان"، وهو ما تتقنه العجائز كما تتقن إنضاج السبرتاية القهوة؛ لذا يتفاءل الكثيرون بهذا، خاصة لو كان الفنجان قادم بأخبار سعيدة أو بقراءة تاريخ صاحب أو صاحبة الفنجان.

وسقوط إحدى أدوات القهوة خلال إعدادها، دلّ ذلك على حضور ضيف لا تنتظر حضوره، كما أنه من غير المستحب أن يقوم بإعداد القهوة شخص أعسر، ولا يستحسن أن يدير ملعقته بيده اليسرى داخل الكنكة، فذلك ينقص حياته سبع سنوات...

يضاف إلى هذا أن فنجان القهوة المصنوع على السبرتاية يجعل الشخص يتحدث بهدوء وقوة ووقار ودون أن يتلعثم، أما إذا شرب شخص من فنجان شخص آخر عرف أفكاره.

ولأن الجلسة النسائية حول "السبرتاية" كانت السبب الأساسي في زواج الكثير من الفتيات عندنا في الشرق، إلا إننا نجد في الغرب الأمر مختلف، ففي إنجلترا، إذا أرادت فتاة أن تختار شابًا زوجًا لها، عليها أن تراقبه أثناء تناوله القهوة، فإذا رأته يضع سكر في فنجانه قبل صب القهوة، تخلّت عنه، باعتباره قليل الميل إلى الإناث.

ومع أن السبرتاية النحاس كانت من أساسيات جهاز العروس وهي تنتقل إلى بيت الزوجية، إلا أنه قد تلاشى هذا تمامًا اليوم، ولم تعد السبرتاية من أساسيات البيت العصري للعروس، ولم تعد العروس تبحث عنها وهي تشتري شوارها وأجهزة مطبخها، بل أنها أصبحت من أدوات الزينة والديكور لشكلها النحاسي اللامع.

لذا فإنها خلال السنوات الأخيرة، أخذت بعدًا جماليًا، حيث كثر استخدامها كقطعة ديكور في المنازل، ولأنها مصنوعة من معدن النحاس، أتاح ذلك تطويرها بإضافة النقوش عليها عبر فني الحفر والنقش اليدوي، بوضع رسوم جميلة وتصاميم زخرفية عليها، وهو ما يجد إقبالًا من جانب السياح الأجانب والعرب الزائرين لأسواق خان الخليلي والحسين والأزهر في مصر.

وفي الحقيقة لم أكن أعرف أنني سوف "أرهق وأدوخ السبع دوخات" كي آتي لزوجتي بهدية مميزة، وعندما استطعت أن أحصل على السبرتاية النحاسية ذات الثلاث أرجل كهدية لها، لم أكن أعلم أن جلساتنا سوف تمتد وتمتد وعبير الذكريات يلتف حولنا، جلسات مليئة بالحكي والذكريات

والبكاء أحيانًا كثيرة، حيث تشعرنا السبرتاية أن الماضي كان أبسط وأمتع برغم كل ما يحيط بنا من مدنية وحداثة، ففي انتظارنا كي تنضج كنكة القهوة، كنا ندردش ونحكي ونتحدث عن أحلامنا ومستقبلنا، إلى أن يجمعنا لقاء حب ممتد بطوال الليل، فهل يأتي يوم تصبح السبرتاية صديقة الجدات، صديقة ورفيقة الحفيدات أيضًا في ليلهن الطويل!

الطشت

رمز سطوة الرجال وكفاح الأمهات ودلع الفتيات وبهجة الأطفال، قمر البيت ومملكة الأنثى التي تتباهى به أمام نساء الحي، عاطفي وغامض وسر من أسرار البيت، وهو أكثر حميمية وصداقة من البحر، وجوده يعطي حماية وأمان وراحة بال ودفء وطهارة ونظافة للعائلة، ودائريته إشارة للتجديد وللبهجة ولقدوم فرحة العيد.

بحر الفقراء المتسع، ومطفئ لهيب العطش وحر الصيف الشديد، وتاج على رأس العروس في جهاز بيتها، ونداؤه الشهير دليل انكسار وانحطاط الذوق العام وقت الازمات.

إنه الطشت النائم في هدوء الأحلام أسفل السرير، ممتلئ بالماء إذا كنت من أصحاب الأدوار العليا، أو الملابس المتسخة إذا كان البيت به جيش من الأبناء وعائلته كبيرة العدد، وسحبه من أسفل السرير بداية لعملية حربية كبيرة "وهي عملية الغسيل" المرهقة لست البيت، قبل اختراع الغسالات، يقف في وسطها باتساعه وحنانه وقوته وابتسامته، يساعدها في استحمام أبنائها وزوجها، وبعد ذلك غسل ملابسهم.

والطشت بفتح الطاء، جمعه طُشُوتٌ، والصحيح أن ينطق تَشْت أو طَسْت لأنها معربة، والمراد به إناء كبير مستدير من نُحاس أو نحوه يستعمل

للغسيل، فيقال: غسل يدَه في الطَّشت، أو اشترت الفتاةُ طَشْتًا من النُّحاس، وأيضًا طَشَّتِ السماء، طشًّا وطشيشًا أي أمطرت مطرًا ضعيفًا، والطشاش من المطر: الرشاش وهو دون الوابل وفوق الرذاذ، وأيضًا ضعف البصر ومنه جاء المثل "الطشاش ولا العمى".

والطشت كان أحد الاساسيات في جهاز العروس، وكل عروس تتباهى بثقل الطشت الذي تزوجت به، وقد رأيت امرأتين يشتبكن في معركة، بسبب أن إحداهن طشتها من النحاس الأحمر بينما الأخرى من النحاس الأصفر، وهو من الأدوات التي تسلف للجيران، وهو نوعان: طشت الأيدي ويستخدم في غسل اليدين وخاصة للضيوف ولعملية الوضوء، وهو عبارة عن إناء دائري يرافقه إبريق للماء، وقد ارتبط هذا الطشت والإبريق بالولائم، أو عند الأغنياء والأثرياء، وخاصة في صعيد مصر، فقد كنت أراه في منزل عمتي بالصعيد، وعند كبارات البلد عندما أذهب مع والدي، وكان كل شخص يغسل يديه وفمه بالماء والصابون قبل تناول الطعام وبعده، حيث يقوم شخص بصب الماء من الإبريق، وكان للطشت غطاء به عدة ثقوب، وفي وسطه مكان لوضع الصابون، وعندما تقوم بغسل يديك، يمر الماء خلال هذه الثقوب إلى داخل الطشت، بحيث إذا جاء شخص آخر لا يرى الماء القذر، والنوع الثاني الطشت الكبير والذي يعد بمكانة حمام أهل البيت في القرية، حيث يستخدمه الكبير والصغير في عملية النظافة الشخصية، ويصنع من النحاس أو الألومنيوم بشكل دائري، ويكون القطر ما بين متر ومتر وربع تقريبًا، وارتفاعه عشرون سم، كما أن هذا الطشت يستخدم في غسل الملابس، ويطلق عليه في القرية اسم "المحمة" لارتباطه بعملية غسل الملابس والاستحمام، ويراعى أن يغسل وينظف جيدًا بالماء بعد الاستحمام فيه.

وأجمل استخدام للطشت عندما يتم فيه عجن الدقيق قبل الخبيز وخاصة قبل عيد الفطر، عندما يتجمعن نساء البيت وأقاربهن في دائرة

حوله، ويقمن بنخل الدقيق ثم العجن فيه ثم تقطّيع الخبيز فيه، وبعد انتهائهن من تلك العملية برص البسكويت والكعك والفطير في الصاجات، تقوم إحداهن بقلب الطشت قبل تنظيفه، ويبدأن في النقر عليه والتصفيق والرقص، كإعلان لانتهاء ذلك الموسم أو الطقس البهيج.

وأكبر خطر يواجهه الطشت النحاس هو تكوّن طبقة "الجنزار" وهي أكسيد النحاس، لذا ارتبطت به وبغيره من الأواني النحاسية مهنة "مبيضو النحاس"، حيث كنا نرى رجل أو صبي يقف في وسط الطشت ويلقي فيه مواده ويقوم بتبيضه "بدعكه" بقدميه وكأنه يرقص، وإلى الآن لا يزال يوجد حي النحاسين الشهير بمنطقة الأزهر والتي بها تبيض وتطلى الطشوت.

ويظل عالقًا بذاكرتي تلك السيدة العجوز الغارقة برائحة الحلبة والجبن القديم، والتي كانت تأتي كل فترة زمنية لمنزلنا وهي تحمل طشتًا كبيرًا على رأسها، وقد وضعت فيه الجبن والبيض، تأتي وتجلس على "بسطة السلم" أمام الشقة، ويلتف حولها نساء البيت، وتبدأ عمليات التفاوض وأمي تُعّد لها كوب الشاي، كانت السيدة تزيح القماشة البيضاء الرقيقة من على وجه الطشت فتكشف عن مشترياتها الثمينة، من جبن وبيض وخلافه، تلك السيدة التي كانت تتفق معها أمي أن تأتي لها بالزبدة والتي كانت أمي تقوم "بتذوبيها على النار" كي تستخرج منها السمن، ويبقى لنا تلك المادة الملحية التي كنا نلتهمها بشغف وتسمى "المورتة" وهي البقايا من عملية صنع السمن البلدي.

ورغم اتساع وأهمية الطشت في حياتنا، إلا أنني لم أجده في الكثير من أمثالنا، ولكني وجدت مثلًا سوريًا يدل على أهميته، حيث يقولون: "الرجل من غير ست مثل الإبريق من غير طشت" وهو واضح، بينما وجدتهم لدينا يقولون: "قُطُع الطشت الدهب إلىَّ أطرش فيه الدم" وهم يردون بقولهم هذا، قطع الدعاء بالقطع أي العدم، أي لا كان هذا الطشت المصنوع من الذهب

إذا أعد لأقيء فيه الدم، وما فائدة إكرامي به وهو من معدات هلاكي، ويقولون أيضًا: "لمَّا أنا ست وانتي ست مين يكب الطشت" أي إذا كنت أنا سيدة وأنتِ سيدة، فمن يريق ويدلق الماء المجتمع في الطشت.

والطشت في الأحلام يرمز لجارية أو خادم، فمن رأى كأنه يستعمل طشتًا من نحاس فإنه يبتاع جارية تركية؛ لأن النحاس يحصل من الترك، وإن كان الطشت من فضة فإن الجارية التي يبتاعها رومية، وإن كان من ذهب فإنه يؤول بامرأة جميلة تأمر بما لا يستطيع، وتكلفه بما لا يطيق، وإن كان من زجاج فجارية سفيلة، وإن كان من بلور فحرة يتزوج به، وقيل: إن الطشت امرأة ناصحة لزوجها تدله على سبب طهارته ونجاته.

وإذا ثقب الطشت فهذه إشارة إلى أنه يوجد نقاط ضعف في الأسرة؛ لذا يجب سد هذا الثقب سريعًا، والطشت الفارغ دليل على الاحتياج وفقر الأيام؛ لذا يظل جلوس المرأة أمام الطشت دليل أن البيت به بركة ورزق وحركة، ولا يخاف عليه من العطف والفقر، لكن الأمر يختلف في أوروبا، حيث لا ينبغي للزوجة الشّابة أن تتخطّى طشتًا، وإلا خشي ألا تلد إلاّ إناثًا.

ويعتبر الطشت مشاركًا مهمًا في المزاج العام، فقد فوجئ الشعب المصري في عام 1968، أي بعد نكسة 1967 المؤلمة، بأغنية كاسحة كان بطلها الطشت، حيث غنّت المطربة "عايدة الشاعر" أغنية: "الطشت قاللي يا حلوة ياللي قومي استحمي"، وقد اكتشفت أن الكثير من الشعراء على امتداد أجيال قد أخذ هذه الشطرة في كثير من قصائده، وإن كانت جميعها تدل على السخرية أو المرارة التي نعيشها، وعلى ما أعتقد أن هذا البيت هو من الفلكلور الشعبي التي توارثتها الأجيال، ولا يعرف لها مؤلفًا، كما أعتقد أن هذه الشطرة خاصة للعلاقة الحميمة بين المرأة والطشت، فهي تجلس أمامه بالساعات لغسل ملابس أبنائها وزوجها، وبالتالي فقد نشأت علاقة حوار بينهما انتجت تلك الشطرة الشهيرة، كما أنه بعد انتهائها من

تلك الاعمال، يناديها الطشت لتقوم بالاستحمام وتنظيف نفسها؛ لذا نشاهد كثيرًا ممثلات السينما يقومن بالغسيل وأمامهن الطشت الكبير وهن في حالة من الدلع والبهجة.

ويوجد "صلاة الطشت" والتي تعرف بصلاة الحميم، وهي صلاة تجرى في اليوم السابع من ميلاد الطفل، حيث يقوم الكاهن في نهايتها بتحميم الطفل بالماء، والغرض منها أن تبارك الكنيسة للأسرة رسميًا وتهنئهم بالمولود الجديد، وايضًا فرصة لكي يختار الكاهن اسمًا مناسبًا للطفل من أسماء قديسي الكنيسة، ولكي يذكرهم بميعاد العماد وشروطه ويشدد عليهم على الالتزام به.

ويظل أخطر مشهد في حياتي رأيت فيه الطشت، كان لوالدي وأمي، حيث كان في أحيانًا كثيرة يعود من العمل، ويشعر بتعب في قدميه، كنت أرى أمي تأخذ الطشت وبه ماء وملح وتجلس على كرسي منخفض ويضع قدميه فيه وتقوم "بدعك" قدميه، كانت تؤدي هذا الطقس بحب كبير له، وكانت بعد ذلك تجفف قدميه، وتتركه ينام وقت العصر كي يشعر بالراحة.

وإلى الآن ما زالت تلك الجملة تتردد في أذني، كلما واجهت مشكلة في حياتي، كانت أمي تقولها لي وأنا عائد بملابسي متسخة وممتلئة بالبقع الصعبة، فأجدها تشير لي بتلك الجملة "روح انقعه في طشت الماء عشان البقعة تطلع"، والآن نحتاج جميعنا طشتًا ننقع فيه مشاكلنا الحياتية؛ كي تعود نظيفة وبراقة ومبتسمة كما الماضي.

العصا

أداة توجيه وضبط وربط وتحذير وتفكير وتذكير، ورمز للتربية والسفر والحركة والسلطة المطلقة.

لا تزال العلقة الساخنة التي نلتها من مُدرس اللغة الإنجليزية، نتيجة عدم إتمامِ الواجباتِ المدرسية عالقة في الذاكرة، ليظل هذا اليوم من أطول أيام حياتي، لقد كان يومًا أسود، حيث لم يختتم إلا بعلقة أخرى من أمي نتيجة عودتي بالشهادة الشهرية وهي تحمل درجاتي الضعيفة، فانهالت عليَّ بعصا "الغلية" والتي تستخدمها في الغسيل، كانت تضربني بشدة وتبدو غاضبة، وإحساسها بأنها لم تقصر في رعايتها ومتابعتها لي.

ومنذ ذلك اليوم، ظلت العصا عالقة في الذاكرة كلما تقاعست أو تأخرت في واجباتي، مع أنني كنت أحب أن أمتطي العصا كحصان أركبه وأنا ألعب وأسابق به الريح، وكنت أتمنى وأنا صغير أن تتحول هذه العصا إلى عصا سحرية أطير بها، وتنقلني من مكان إلى مكان مثل الحكايات الشعبية التي كنا نسمعها، أو تتحول لعصا سحرية ألوح بها في الهواء فتتحقق كل أمنياتي التي أحلم بها، كانت العصا في تلك الفترة الطريق القصير لتحقيق أحلامنا البسيطة، تلك العصا السحرية التي أصبحت الجماهير تعتقد أن أي حاكم جديد يحملها معه، وبيديه الحلول السحرية لكل مشكلاتنا الحياتية المعقدة، لكن هذه العصا ما تلبث أن تتحول إلى "عصا لمن عصا" في وجه

ورأس كل من يطالب بالتغير أو تحسين الأمور، ليأتي إلينا اليقين أن تلك العصا السحرية حلم لن يتحقق أبدًا.

لقد تحولت العصا لتكون عصا للحزم والترهيب على عقولنا وأيدينا إبان ثورة يناير المجيدة، كانت تلك العصا يمسكها العساكر، وهي قصيرة وغليظة، وصوتها مفزع، حيث يقوم العساكر بالاصطفاف في صفوف خلف بعضهم، ثم يخبطونها على دروعهم الواقية في وقت واحد وبطريقة متفق عليها، قبل أن يندفعوا في اتجاهنا، ونحن نلقي عليهم الحجار ونلوذ بالفرار.

وبالبحث عن العصا نجدها وقد امتدت، وتشعبت طولًا وعرضًا في التاريخ والتراث والأديان والحياة الاجتماعية.

فالحضارات الإنسانية في تحركها عبر الزمان، استندت على العصا قبل أن تستخدمها في الحروب والغزوات والفتوحات، بل أنها استخدمتها في الاستقرار وتحديد الأبعاد الجغرافية، وقد ارتكزت الحضارة الشرقية على العصا في رحلتها الإنسانية؛ لتصبح العصا من مميزاتها الفريدة.

ففي الأديان نجد أن كلمة العصا ذكرت في اثنتي عشرة آية في القرآن الكريم، وأتت مرة واحدة بلفظ منسأته، وتقف عصا سيدنا موسى تلك التي صنعت الأعاجيب في رحلته سواء عندما فلقت البحر أو في معركة إثبات القوة والقدرة أمام سحرة فرعون وتحولها إلى ثعبان مبين، ويقال أن تلك العصا قد أتي بها سيدنا آدم من الجنة، تليها عصا سيدنا سليمان والتي أثبتت بما لا يدع مجالًا للشك أن الجن لا يعلمون الغيب، وأعتقد أن جميع الأنبياء استخدموا العصا –سواء كانت طويلة أو قصيرة، رفيعة أو غليظة– في رحلتهم لتوجيه الإنسانية، فلا أتصور أن يرتب ويقود سيدنا نوح كل تلك الكائنات الصاعدة لسفينة الإنقاذ في الطوفان العظيم دون أن يكون في يده عصا، كما أن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو يرعى الأغنام

أو يخرج من مكة مهاجرًا أو فاتحًا كانت في يده عصا، يأتي بعد ذلك في الشهرة "درة" عمر بن الخطاب، التي أسهمت في تحقيق عدالة عصره، ومن هنا قال الشيخ البصري في العصا: فيها ست خصال، سنة للأنبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغم المنافقين، وزيادة في الطاعات.

والعصا تاريخيًا ضاربة في تاريخ كل الحضارات، فنجدها في يد كل الفراعين كصولجان نراه بوضوح على نقوش المعابد وعلى صدورهم بشكلها المميز وبنهايتها المذهبة، وأشهرها عصا الملك "توت عنخ امون" المذهبة في المتحف المصري، تلك العصا التي أصبحت عصا المارشالية، والتي كان يمسك بشبيهاتها الرئيس الراحل أنور السادات، والتي كانت تزيده بهاءً وقوة، بينما نجد عصا غاندي الفقيرة، والتي ارتكز عليها وهو يطالب باستقلال الهند من الاحتلال الإنجليزي، تقف أمامها عصا تشرشل رئيس وزراء بريطانيا لئيمة وخبيثة في محاربته الألمان، بينما نجد الرئيس الأمريكي روزفلت يشبه الدولة بالرجل، ويقول محذرًا أعداءه: "إنني أتعامل بلطف لكن دون أن أنسى عصاتي".

لكن العصا لم تكتفِ بكل ذلك، فانتقلت للسياسة، كنوع من الترهيب والحذر واللقم، فنجد مصطلح "العصا والجزرة" وهو مصطلح خبيث وتعبير مجازي أنشأته السياسة الأوربية، بربط الجزرة على عصا وترك هذه الجزرة تتدلى أمام الحمار ليستمر الحمار في السير ظانًا أنه سيصل للجزرة، وأحيانًا يستخدم كمثال يستعمل للتدليل على سياسة الدول الكبرى في المفاوضات، والتي غالبًا ما تنحو إلى أسلوب الترغيب بالجزرة أمام وجه الحمار...

وفي حالة عدم تأثر الحمار بالجزرة المغرية، فإن الراكب يأخذ العصا ويضربه به، وهذه تدعى سياسة العصا لمن عصا، وهي تختلف عن سياسة "بالتي هي أخشن" وليس" بالتي هي أحسن" عندما تتأزم الأمور، لكن

الترهيب والتهديد يختلف في بحر السياسة الغارق، فالماهر من يستطيع أن" يمسك العصا من المنتصف" وهو مصطلح سياسي مذبذب، وينتظر من تميل ناحيته جميع الأمور.

ومن العصا اشتق منها لفظ العصيان؛ لأنه تمرد ضد العصا أي ضد اليد المؤدبة، والأخطر أن تكون العصا في يد عاصية، ونجدها بوضوح في سياسة أمريكا الخارجية، ودليلًا أن أمريكا صاحبة العصا الوحيدة في العالم.

وبعيدًا عن السياسة ومتاعبها، نجد أن أرق عصا هي عصا المايسترو الساحرة القادرة على توجيه الاوركسترا السيمفوني، ثم عصا كان يستند عليها شارلوك هولمز وهو يحل أحد الألغاز أو بحثًا في جريمة، يلي ذلك عصا بعض الأدباء والتي رافقت كفوف أيديهم مثل القلم على الورقة، فنجد جبران خليل جبران، وطه حسين، وتوفيق الحكيم الذي كتب في ظل صحبتها كتابه الممتع "عصا الحكيم"، وتضمن الكتاب حوارًا بين الحكيم وعصاه.

وفي مجال الفن، نقل لنا الأديب العالمي "نجيب محفوظ" الحارة المصرية بالنبوت في روايته التوت والنبوت، وتعتبر عصا السيد أحمد عبد الجواد من أشهر العكازات التي شاهدناها سينمائيًا، كعصا للوجاهة والسيطرة الذكورية الشرقية، يليها "الحاجة زهرة" تلك العصا الشهيرة في فيلم نجيب الريحاني الشهير "سي عمرو" والتي هدده عبد الفتاح القصري بها، بينما نجد الفيلم الجزائري الشهير "الأفيون والعصا" والذي يحكي عن سنوات النضال في الجزائر إبان الثورة الجزائرية، من إخراج أحمد رشدي.

ولأن العصا تستطيع أن تمتد؛ فقد وصلت للكثير من الألعاب فنجد عصا البلياردو وعصا الجولف وعصا الهوكي وعصا القفز بالزانة، لكن تلك الألعاب متخذة من عصا قصيرة كنا نلعب بها لعبة "تريك تراك" في

الشارع ونحن صغار وهي أن نضرب "طوبة" صغيرة بها، ثم نجري حتى نصل للهدف.

وتوجد في منطقة الحجاز لعبة المزمار، وهي عبارة عن فن يتضمن القتال بالعصا، لكنه يختلف عن التحطيب المصري وهو فن المبارزة بالعصا، وهي مبارزة قتالية بالعصا الطويلة بين فردين، ويظل فن التحطيب الشهير في صعيد مصر، دليلًا راسخًا على الفتوة والعظمة والشموخ الصعيدي الأصيل.

ودليلًا على أن حياتنا الاجتماعية استندت على العصا، نجدهم يقولون: "اضرب عصاتك واجرى وراها"، بمعنى أنك حر أفعل ما تشاء، ويقال في الاحتراس والحذر: "إن رحت للمشنة خد عصاك معاك" أي احترس حتى ولو كان خبزك قريبًا منك، فربما يحاربك أحد عليه، ولأن الحب ليس بالعافية أو القوة يقولون: "حبني وخدلك زعبوط قال هي المحبة بالنبوت" أي الحب ليس بالتهديد.

وعندما تأتي العصا في الأحلام نجدها تدل على رجل قوي يعتمد عليه، وربما تدل على الأمر والنهي والنصر على الأعداء وبلوغ القصد، وربما دلت على الحية أو السحر.

لقد حملت العصا عند العرب الكثير من الأسماء، منها المنجدة، المقلد، الصولجان، المربد، المخصرة، الجرة، العنزة، المخرش، المهزام، المحجن: كالصولجان، المربعة.

وفي الآونة الأخيرة، ظهر على سطح حياتنا اسم العكاز والزخمة والشومة والنبوت مرة أخرى، وهي أسماء لأنواع من "العصي" ظهرت من جديد لتعويض غياب الأمن بعد أحداث الربيع العربي، وأنواعها كثيرة فقد تكون من القصب أو الخيزران أو خشب الأبنوس، حيث تحفر وتنقش

بأشكال وطرق فنية مختلفة، وفي أغلب الأحيان تجهز بمقايض فضية أو من العاج والتي تشكل بذاتها تحفًا فنية.

كما نجد "العصا البيضاء" والتي يستخدمها فاقدو البصر في سيرهم، ويعتبر المصور "جيمز بيج" أول من أطلق تسمية العصا البيضاء على عصا المكفوفين، وذلك بعد تعرضه لحادث سير أدى إلى فقد بصره، وعصا أسكليبيوس هي رمز يوناني قديم متعلق بعلم التطبيب والشفاء، يتألف من أفعى ملتفة حول عصا، والعصا هنا رمز للسفر والمعرفة.

وها قد دار بنا الزمان مرة أخرى؛ فعاد النبوت والشومة لأيدي الناس، فلم نعد نرى فرقًا بين عصا الراعي وعصا السلطة الغاشمة، وهو نفسه الفرق بين عصا المدرس وعصا الحكومات، لكن للأسف لم نعود لعصر فيه فتوات وحرافيش، أو حتى مدرس يوبخ تلميذًا أو أم توجه أبناءها بعصا الغسيل.

القبقاب

ناعم، عطوف، زحاف، رطب، صحي، قوي، رنان، كعبه العالي زينة العروس ومصاحبها في حمام الهناء؛ لزيادة طولها ورقتها وأنوثتها، دقته شفرة سرية لقلب الحبيب، قائد عصر الجواري الذهبي وحامل فرحة العيد، وهبة رمضانية وصدقة للمساجد، دليل العظمة والشموخ وسفير هدايا الملوك والسلاطين، والمنقذ من أوحال الشتاء.

ومع ذلك فهو مخادع، ووضيع، وكاذب وهدّار وسبب الهلاك والموت، مدمى الرؤوس، ومشعل المعارك، ويرافق وداع الخطيب المتعوس، ووسيلة للانتقام ودليل الإدانة والعقاب وتغيّر وتبدل الحال.

جذبتني رنة القبقاب بعيدًا عن رنين الموبايل بشدة للتجول بين ثنايا تاريخنا وتراثنا، حيث يقف فيها القبقاب شامخًا ومؤثرًا، على الرغم من تراجعه واندثاره الآن.

ولم أجد أدق من هذين البيتين لابن هانئ الأندلسي وهو يصف لسان حال القبقاب وهو يبكي على حاله "كنتُ عضنًا بين الأنام رطيبًا مائس العطف من غناء الحمام.. صرتُ أحكي رؤوس عداك في الذل برغم أداس بالأقدام".

والقَبْقَابُ: نَعْلٌ تُتَّخَذُ من خشب، وشِرَاكُها من جلد أَو نحوه، وجمعه: قباقيب، والاسم جاء من صوته؛ لأنه يُحْدِث صوتًا مزعجًا أثناء السَّير، والقبقاب يكثر انتعاله فِي الْحَمَّامِ، ومصدر قبقبَ، شَخْصٌ قَبْقاب أي: ثرثار مهذار؛ لذا تطلق على الرجل كثير الكلام والكذاب، أي خَلط وهذر فهو قَبْقَابٌ.

ويرتبط القبقاب بمفاهيم متعددة في الثقافة الشعبية، منها التشاؤم من انكفائه على وجهه، ووضع إحدى فردتيه صدًا للحسد، ويرمز خبط فردتي القبقاب ببعضهما استجلاب الشر والمشكلات، ومع ذلك نظل نبحث عن جمال المرأة حين تقبقب بدلال ودلع، متذكرين الأغنية الشهيرة للفنانة شادية "رنة قبقابي يامّة.. بتميل راسي.. الكل قالوا اسم الله.. حتى العزول القاسي"، يقابلها أغنية "مريت من قدام بابها وسمعت رنة قبقابها" والتي كان شباب الشام يتغزلون بها للفتاة التي يحبونها.

وتختلف رؤية القبقاب في المنام، فتدل على الزهد والتوبة، والطهارة والزواج للعازب، أو تدل على الخصام، أو إظهار سر لمن يريد كتمه، ومن رأى أنَّه يمشي في قبقاب زجاجي فإنه نمّام منافق، ومن رأى أنه يلبس قبقابًا جديدًا فإنه يشتري غلامًا.

وتنطلق دقة القبقاب المدوية في الأمثال، كي تصنع البهجة والمؤامرة وتقلب وتغير الحال، فيقال: "سبحان العاطي الوهاب بعد الشبشب والقبقاب" أي أنه بعد الفقر أصبح غني ونسى أيامه القديمة الفقيرة، ويقال أيضًا: "صرصار الششمة والقُبْقَابْ عملوا علينا اصحاب" أو "المكنسة والقبقاب عملوا علينا اصحاب" وهو يطلق للوضيعين يتفقان ويتأمران على النكاية بكريم، بينما نجد في ارتباطه بالأعياد كان يقال: "من ليس له قبقاب ليس له عيد" أو "ريح مداسك يرتاح راسك".

وللقبقاب كثير من المميزات، فهو رخيص الثمن، وصحي "يشد الظهر" ومريح للقدمين، ولا يتلف بمرور الزمن، ولا تتعلق به القاذورات ولا يحمل "نجاسة" في دورات مياه المساجد أثناء الوضوء، كما أنه قوي يتحمل العمل، وكان يُلبس داخل البيت خاصةً للنساء؛ لأنه مريح في الحركة والعمل في شؤون البيت، وفي الحمامات الشعبية، وفي الأسواق والأزقة، وكان الرجال يلبسونه في الشوارع اتقاءً للوحل أيام الشتاء.

وكانت العائلات تميز القباقيب عن بعضها من خلال وضع مسمار أو أكثر في مقدمة القبقاب، إضافة إلى ألوان سير القبقاب حيث كان يتم عادة تزيين القبقاب الخاص بالأطفال بالورود والألوان، بينما تتميز قباقيب الرجال بألوانها التي تتراوح بين البني والأسود.

وشكل القبقاب في الماضي مختلف عما نراه اليوم، فبينما نجد البعض قريب من الأرض، نجد أن بعض الأنواع يصل ارتفاعه إلى نصف ذراع، وكان يلبسه من كان يرغب في تطويل قامته لابتلائه بالقصر المفرط، أو كان محبًّا للعظمة والظهور، ولأنه كان مرتفعًا عن الأرض؛ فقد كان استعماله والسير به له أصول خاصة به تحتاج إلى تدريب كي تتمكن الفتاة من إصدار الصوت في القبقاب ويبلغ أثره عند شباب الحارة.

والقبقاب الذي نراه الآن يتكون من قالب خشبي ذي المقاس الموحد، وقطعة كاوتش سيارة ومسامير، وقطعة صغيرة من الصاج لإحكام ربط الكاوتش بالقالب الخشبي، وأصعب مرحلة هي تصميم القوالب الخشبية والتي تتم بالتعاون مع ورش نجارة متخصصة، وفي الماضي كان الحرفيون ينحتون النعال بأيديهم إلى أن ظهرت آلات تؤدي هذه المهمة؛ فأصبح عملهم يقتصر على تثبيت الجزء المصنوع من الجلد، ويعد خشب التوت والجازورين والفيكس هم أفضل أنواع الخشب المستخدمة في صناعة القبقاب.

وفي صراع الحضارات، يقف القبقاب العربي شامخًا ضد الغرب بجبروته؛ فلم أعثر في بحثي عنه في الحضارة الأوربية إلا في حالة واحدة –بالمناسبة لا يصح أن نأخذ حذاء سندريلا قبقابًا– وهي تقول: لا ينبغي أن نُلبّس الميت قبقابيه لئلاّ تُجرح رجلاه، فيدخل الجنة، وهو أعرج، الأمر الذي لا يُرضي القديس يوحنا، بينما ينتشر القبقاب العربي في كل محطاتنا التاريخية، بل ومشارك في وضع أو تغير مجرى التاريخ، أشهرها بالطبع القبقاب الذي قتلت به شجرة الدر على يد الجواري وكان مصنوعًا من خشب الورد، ويسمى قبقاب "أم علي"، يليه "قبقاب الدراويش" وكان سلاحًا قويًا ضد جنود الحملة الفرنسية في ثورة القاهرة الثانية، حيث دقت فيه النساء مسمارًا كي يصيب جنود الحملة.

وتعتبر دمشق من أشهر المدن التي صنعته، وبها سوق عريق يسمى "سوق القباقبية"، ومن هذا السوق كان يُصَّدر إلى جميع المدن العربية، بالرغم من وجود صناع مهرة في تلك البلاد، إلا أنَّهم ليسوا بحرفية ومهارة الدمشقيين.

لذا فالقباقيب الدمشقية أشكال ومسميات، منها "الزحاف"، ويقال له الزحافي، ويعتبر أكثر الأشكال رواجًا لرخصه، وترتديه العامة لسهولة المشي والجري به، و"قبقاب سجك" قدمه لاصق بالأرض، والمؤخرة لها كعب مرتفع، و"الشبراوي" وهو المرتفع بقدر شبر اليد عن الأرض، وهو قبقاب نسائي تم استخدامه بكثرة، ويكون خشبه مصدفًا وسيره مطرزًا بخطوط الفضة، و "الجركسي" أو ما يسمى قبقاب "المهاجرين" وجاءت تسميته لقيام بعض الحرفيين من المهاجرين والجراكسة، الذين قِدموا دمشق بصناعَتِهْ على أهل بلادهم الأصليين، وهو أقل الأشكال ارتفاعًا وألصقها بالأرض وأبخسها ثمنًا، وهناك "العكاوي" وهو دون الشبراوي علوًا، ولا يعلم أحد سبب التسمية، هل لأن أهل عكا يلبسونه خاصةً، أم كان يُصنع قبلها في مدينتهم عكا؟ وهناك قبقاب "الكندرة" ويشبه قبقاب الجراكسة إلا

أنَّ له مقدمة ومؤخرة، وقد ارتداه كثير من الفقراء والموسرين؛ اتقاءً لأوحال الشتاء ولرخص ثمنه.

وكان القبقاب في الماضي من ضمن أساسيات العروس في جهازها، وكان مغلفًا بالمخمل ويأتي مع كرسي الحمام في جهازها، ونجد قبقاب العروس في منطقة الحجاز، يطلق عليه اسم "القرحاف" وله طقوس في تزيينه وتجميله بالفضة والذهب.

وأغرب قصص القبقاب التي وجدتها في تاريخنا ما حُكي عن أحد لاعبي السيرك الذي حضر لدمشق من حلب، وأظهر ألعابًا وفنونًا غريبة منها أنه مشى على الحبال وفي رجله قبقاب وتحته ألواح الصابون، وحادثة شهيرة أخرى كان فيها القبقاب سببًا للهلاك والموت، وهو ما حدث لقاضي الحنفية بمصر "برهان الدين إبراهيم الكركي" 922 . 1516م، وكان يقف على بركة الفيل ليتوضأ وفي رجله قبقاب، فهبط السلم لكن زلقت رجله فوقع في البركة، وكانت ممتلئة؛ نظرًا لامتلائها بفيضان النيل ولم ينتبه له أحد لينقذه، وعندما غاب وبحثوا عنه وجدوا عمامته عائمة وفردة القبقاب على السُلَّم، كما أن أهل دمشق كانوا يستخدمون القبقاب كنوع من العقاب والتجريس بالجاني، حيث دخل في ضمن أدوات العقاب، عندما كان يُعلّق في عنق المُشهَّر بهم.

وبعيدًا عن غرائب القبقاب من دلال سير على الحبل وقتل وتجريس، فنجد أنه يشدنا لسحر التاريخ، حيث انفرد السلاطين والملوك، بامتلاك القبقاب من الذهب المرصَّع بالجواهر، لنجد النساء في عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون، قد اتخذوه علامة للموضة والثراء، فسعر أحد القباقيب وصل لمبلغ خمسة وسبعين ألف درهم فضة، أي ما يعادل على ثلاثة آلاف دينار مصرية في عام 1372 ميلادية، كذلك نجد عند قدوم الأمير منجك نائب الشام إلى مصر، وكان في من ضمن هديته للسلطان "ثلاثة قباقيب

نسائية من الذهب فيها اثنان مرصعان بالجوهر" قيمتها مائة وخمسون ألف درهم.

ورغم دلع القبقاب ودلاله إلا أني فوجئت به يحمل قسوة وحرج عن العريس الذي يتقدم لخطبة فتاة، فبعد أن يأتي للزيارة الأولى وتراه العروس ويراها، وفي حال لم تُعجب العروس به، كانوا يضعون قبقابًا على عتبة باب الدار، وحين يخرج العريس الطالب يرى القبقاب على الباب فلا يرجع، أو يصبغونه بلون ذهبي ويضعونه في علبه فاخرة ويرسلوها إلى أهله.

والآن الكثيرون يعتبرونه خارج العصر؛ لاختلاف أنماط السكن والتطور، ولم يعد القبقاب حذاءً شعبيًا، بل أصبح حذاءً سياحيًا، وفي بعض الأحيان حذاءً طبيًا، يصفه الأطباء لبعض المرضى ممن لديهم مشاكل في أقدامهم كالحساسية، أو لمرضى السكري، إلا أن الصوت الذي يصدره ما زال يثير لدى السامع إحساسًا مختلفًا يعيده بالذاكرة إلى الزمن القديم.

ولا أنسى هنا في احتكاكِ بالقبقاب يظل رنين دقات قبقاب جدي محمود –كان كفيفًا– وأنا أسحبه من يده من ميضة مسجد الحنفي في الناصرية بالسيدة زينب لصلاة الجمعة، وقبقاب ارتديته وسرت به لبيتنا عندما سرق حذائي من أمام أحد المساجد الكبرى في القاهرة في أحد الأعياد.

ولا أستطيع أن أخلع القبقاب من قدم التاريخ العربي، ألا بعد أن نستمع لنصيحة أهل الشام القديمة التي تقول: "البسوا في أرجلكم القبقاب؛ فهو من الخشب ومريحٌ للقدمين، ولا يتأثر بالحرارة أو البرودة، ولا يسبب التشققات الجلدية؛ لأن ليس هناك أحنَّ من الخشب على البني آدم"، والآن أنتظر أن أسمع دقة القبقاب العربي تحدث دوي هائل في التاريخ العالمي، كما تدق في أسماعنا كدليل على عمق تراثنا العربي الخالد.

القُلة

زاهية، متألقة، الساحرة المسحورة، الرقيقة، الخجلة، المتسامحة، المزهوة، الصابرة، وكاتمة الأسرار، رمز الدلع والدلال والبهجة والارتواء والتخلص من الأعداء، وأمل المحبين والعطشى والمتسولين، وخادمة أمينة ومعطاءة بلا حدود.

بنت من طين، مليحة، وصامدة تتحدى الانقراض، دليل أصل المنشأ وقوة التربية ونظافة ربة البيت وبركتها، وثلاجة الفقراء المنعشة في أيام الهجير شديدة الحرارة، وتاج البهجة الأساسي في احتفالية سبوع المولود.

هذه هي القلة، قبلتنا التي تبل ريقنا في أيام الحر والشقاء، تلك التي تقف باكتنازتها ورقبتها الطويلة وشفتيها الرقيقة في المشربيات والشرفات والنوافذ.

والقُلَّةُ: إناء من الفخار يُشرب منها، وقُلَّة كل شيءٍ: قمَّته وأعلاه، والجمع قُلَل وقِلال، ولم أجد معنى محددًا لها؛ فربما يرجع معناه للشيء القليل أو بالنسبة للرجل القصير الجثة، أو نسبة إلى القَلُّودُ وهو البئرُ الكثيرة الماء، أو القَلْدَاءُ وتعني ناقةٌ قَلْدَاء أي طويلة العنق، ويقال إن الاسم الحقيقي هو "قِلّة" بكسر القاف وليس بضمها؛ نظرًا لصغر حجمها.

والقلة عبارة عن إناء شعبي لشرب الماء، وهي نوع من أنواع الجرّة والتي تصنع من الطين المشوي أي المحترق، وتتعدد أحجامها وأشكالها، فهي مخروطية الشكل، قاعدتها أكبر من شفتيها، تأخذ شكل حبات الكمثرى، ولها رقبة أسطوانية الشكل، وبداخل الرقبة فتحات صغيرة من الداخل لتنظيم خروج الماء، يسمى "شباك" وهو أشكال كثيرة، يتألف من زخارف بدائية التشكيل مخرمة لكتابات وحيوانات وأسماك، وقد اختفت الآن تلك الاشكال، وأصبحت ثقوبًا صماءً جافة.

وأشهر أنواعها "القلة القناوي" نسبة إلى محافظة قنا بجنوب مصر؛ لوجود فيها تلك الخامة بكثرة، وهي نوعان، "القلة البيضاء" والتي تتميز بلونها وطولها، والنوع الآخر أقل طولًا، وتسمى "القلة الحمراء" ولها يدان مثل ضفائر شعر الفتيات للإمساك بها أثناء الشرب.

وللقلة غطاء مخروطي الشكل من نفس مادة صناعتها، يوضع عليها كي لا يقع فيها شيء، وكان هذا الغطاء يزدها بهاءً وزهوًا واكتمالًا، ولأنه يكسر بسهولة؛ فقد تطور وأصبح هذا الغطاء من النحاس.

وكنت أعتقد وأنا صغير أن سبب هذا الغطاء الذي يوضع على القلة كي لا يخرج المارد منها، ذلك المارد الذي يعوم ويلهو في مائها وهي مملؤة، ويجف ويعاني الوحدة والانكسار والجفاف والحرارة إذا جف ماؤها؛ لذا فإن هذا المارد يظل ماردًا طيبًا وغير شرير كلما ظلت ممتلئة بالماء، ويحقق بعض الأمنيات لأصحاب البيت، وعندما يجف الماء؛ فإنه يخرج غاضبًا، ويبدأ في عقاب أهل البيت.

ونادرًا مشاهد القلة تقف منفردة، فدائمًا نراها هي وأخواتها تقف في النوافذ، وقد وضعوا في "صينية القلل" وهي عبارة عن إناء دائري الشكل مصنوع من النحاس ويستخدم في حفظ القلل، وهكذا في استخدامات بديلة

لشطف الأيدي، وكانت أنواع الصينية حسب ثقلها ومادة صناعتها، وهي إحدى القطع المهمة في جهاز العروس.

ونشأه القلة قديمة، قدم الحضارات القديمة ذاتها، حيث إنها تُصنع من الفخار، تلك الصناعة المسجلة على أحد جدران كل من معبد الأقصر ومعبد حتشبسوت في مصر القديمة، بل أنها في الماضي كانت أحد أساسيات البيت، لكن هجوم المدنية والأجهزة الحديثة من ثلاجات ومبردات، جعلها تتراجع بل وتشرف على الانقراض والتلاشي من الذاكرة التراثية.

لكنها مع ذلك، تقاوم الانقراض بقوة، حيث يوجد الكثير من الناس لا يزالون يحبون اقتناءها، والشرب من مائها الرائق المرصرص، والذي يعني المثلج دون أن يؤلم الأسنان أو الحلقوم أو المعدة.

وللقلة في الريف والمناطق الشعبية اهتمام خاص بها، هي والزلعة، حيث تملأ القلل من الزلعة التي تأتي بها الفتيات من الترعة في الصباح الباكر، وقد كانت ربة البيت تهتم بنظافة قللها وزلعتها جيدًا، بل أكثر من اهتمامها بنظافتها الشخصية، حتى لا يقال عليها: "القُصّة والمقصوص والزلعة ملانة سوس"، وهذا دليل على إهمالها وعدم اعتنائها.

كما أن ربة البيت كانت تراقبها على مدار اليوم؛ حتى لا تخلو من الماء، لأن مد اليد للشرب منها ثم اكتشاف فراغها من الماء تأكيد على الإهمال وعدم العناية، بل والتشاؤم أيضًا من خلو البيت من البركة، وكان للمصريين عناية بالقلل حيث تدعك وتنظف كل يوم بالرمل، وكثيرًا ما كانت تملأ بماء الورد أو ماء بالنعناع.

ولحرص ربة البيت على قلتها؛ فقد كنا نشاهدها وهي تدقق فيها عند شرائها، وتقوم بالنفخ فيها؛ حتى لا تكون مثقوبة أو مشروخة، وكان البائع

يعطي النساء "حتة دهن" كي يتم سد أي ثقب في القلة عند استخدامها، لكن ذلك اندثر الآن وأصبح يتم سد الثقوب بقطعة من اللبان أو الأسمنت الأبيض؛ مما يشوه جمالها وتألقها وزهوها.

والقلة تصنع من الفخار وهو الطين، ويتم حرقها في أفران خاصة، والفخراني هو صانع الفخار، ولأن الفخار ارتبط بالكثير من الممارسات السحرية؛ نظرًا لما تتمتع به خامة الطين من ليونة قبل حرقها، ساعد على الاعتقاد بأن ذلك يرجع إلى صفات سحرية في تلك الخامة، وكتابة بعض العبارات السحرية المقصود بها إحداث الضرر متى جف الإناء وأُحرق، ومن ثم يثبت عليه العمل السحري فيدوم أثره، ومن هذه الممارسات السحرية الشعبية هو "كسر قلة" وراء الشخص الذي لا يُرغب إلى عودته إلى المكان مرة أخرى، هذا إلى جانب الاعمال السحرية الضارة.

لكن على الطرف الآخر هناك ممارسات سحرية خيِّرة تتمثل في بعض الكتابات أو الرسوم على القلل للتفاؤل وجلب الخير والسعادة، منها هذه الإشارات والرسوم على شبابيك القلل الإسلامية.

وحتى الآن تظل القلة عنصرًا أساسيًا في احتفالية سبوع المولود، وكانت تصنع من الفخار بلونه الطبيعي، ثم أضيفت إليها الآن الألوان الأحمر والأخضر والذهبي، ويعتقد أن تلك الألوان تيمنًا بألوان البيارق التي تعقد عند إقامة موالد الأولياء وحلقات الذكر، يضاف إلى ذلك بعض أنواع القلل بها مكان يوضع فيه الشموع، وكانت "القلة" خاصة بالمولود "الأنثى"، بينما "الإبريق" للمولود الذكر.

ورغم أهمية القلة وتوغلها في تراثنا، فإنني لم أجدها في تفسيرات الأحلام إلا بمسمى "الجَرّة"، ولها الكثير من الدلالات، وهي تدل على شخص أجير منافق يجري على يديه مال ويؤتمن عليه، وشرب الماء منها

حلال وطيب عيش، فمن رأى أنه شرب نصف مائها فقد نفد نصف عمره، وقيل الجرة امرأة أو خادم أو عبد، وربما يختلف التأويل فقد حكي أن رجلًا أتى ابن سيرين فقال: رأيت كأني أشرب من قلة ضيقة الرأس، فقال له: تراود جارية عن نفسها.

كذلك لم أجد القلة في أمثالنا، بل بلفظ جَرّة؛ لذا يقال "كان في جرة وطلع لبرة"، ويقال أيضًا "مش كل مرة تسلم الجرة"، وأعتقد أن هذا جعل القلة تصاب بالضيق والحيرة، مما جعلها تأخذ أو تقتبس مثلًا شعبيًا شهيرًا لحسابها في الآونة الأخيرة، وحرفته لحسابها وهو "اكفي القدرة على فمها البنت تطلع لأمها" أي اقلب القدرة على فمها، واعلم أن البنت تنشأ على ما عليه أمها من خير أو شر، أي لا تكثر الكلام في ذلك الأمر كما أعلمتك ولو قلبت الدنيا عاليها سافلها، وقد أصبح يقال خاصة بين أبناء المدينة "اقلب القلة على فمها تطلع البنت لأمها"، بينما أهل الشام يقولون: "زي قلل مصر لا كسم ولا خصر".

وقد أخذ من القلة مصطلحان شهيران وهما "كسر الرقبة"، و"توسيع الزُور" وذلك عندما تتعقد بعض الأمور في حياتنا، ونحتاج إلى أمر قاطع أو بعض المحايلة والصبر.

وأكثر من يستخدم القلل الآن بائعو الترمس والفول "المِقيلي" لمن يريد أن يشرب كأنها سبيل لله، كما اعتاد بائعو حب العزيز أن يبيعوه بزفة، وقد كان من عادة بعض الناس أن يصفقوا أمام بيوتهم قللًا نظيفة ملأي في رمضان؛ ليشرب منها المارُون وقت الإفطار، وشبهوا الكمثرى بقلل الشربات، فقالوا: "زي قلل الشربات يا كمثرى".

وإلى الآن يظل الغناء الشهير وخاصة لفتيات الريف "البحر بيضحك ليه وأنا نازلة أدلع أملأ القلل" هو ما يثير النفس ويملأها بالبهجة والحب،

يضاف إلى ذلك الأغنية الشهيرة التي كتبها الشاعر بديع خيري وقام بتلحينها وغنائها فنان الشعب "سيد درويش" دليل على الأصالة وعلى مواجهة القلة المستعمر الإنجليزي، حيث كانت أغنيتهم تقال بسبب رحيل الإنجليز عن مصر، وذلك بكسر القلل خلفهم وكان مطلعها يقول: مليحة قوي القلل القناوي، رخيصة قوي القلل القناوي، قرب حدانا وخدلك قلتين، خسارة قرشك وحياة ولادك، ع اللي ماهواش من طين بلادك"

ولكن للأسف فقد تحولت القلل الآن لباب للتسول خاصة بعد ضعف الإقبال على شرائها، حيث يقوم بعض بائعي القلل بقلب العربة التي تحمل قللًا على قارعة أحد الطرق العمومية، ويجلس بجوارها في هم وحزن مصطنع، بل والبكاء أيضًا؛ فما يكون من المارة والعابرين بسيارتهم إلا التوقف وإعطاءه بعض النقود لتعويض خسارته.

والآن، وللحقيقة فإننا نحتاج الكثير من القلل كي نكسرها خلف الكثير من الأشخاص الذين يجب أن يخرجوا ويرحلوا عن حياتنا دون رجعة، هم والكثير من العادات والسلوكيات؛ حتى يعود لحياتنا الهدوء والرقة والزهو أيضًا.

القنديل

عين شمس البيت الغارقة في الماء والزيت، يصادق العلماء والفلاسفة والباحثين عن الحقيقة، مضيء ومتوهج ورمز للأمل، وفتيلته تثير الخيال وطاردة للشياطين.

هكذا هو القنديل، ذلك الصغير الذي يشع ويضيء كل شيء حوله، وهو عبارة عن قنينة من الزجاج، ممتلئ بالماء وعلى الماء يوضع الزيت، ويخرج منها فتيلة تمتص الزيت فتشتعل وتضيء؛ لذا يقولون في الأمثال "زي عذاب الزيت في القنديل تحته مية وفوقه نار"، وهو يضرب لمن أحاطت به المصائب، وأصبح كمن لا مفر له من الإغراق أو الإحراق.

والقنديل حفيد الشمعة، وأب حنون للمصباح الكهربائي، وخطوة مهمة في تاريخ تطور البشرية وتقدمها، فإذا اخترقنا تراثنا العربي، لن نستطيع ذلك إلا إذا أمسكنا قنديلًا ينير لنا طرق هذا التراث ومتاهاته، وكل العلماء والفلاسفة العرب صاحبهم ضوء القنديل في دراساتهم ومخترعاتهم التي أنارت العالم؛ لذا قيل: إن القناديل في المساجد هم العلماء الأغنياء وأصحاب الورع والقراءات، وفي التنزيل العزيز في سورة النور "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجةٍ الزجاجة كأنها كوكبٌ دري".

وأشهر القناديل، قنديل "السيدة نفسية" بالقاهرة، والذي كان يتبرك به، وزيته يتم معالجة المرضى منه، خاصة مرضى العيون، وقنديل أمسكه الفيلسوف الإغريقي ديوجيين الكلبي نهارًا، كي يدل على صعوبة الوصول للحقيقة، وقنديل الرواية العربية "يحيى حقي" صاحب روايته الفريدة "قنديل أم هاشم"، وأم هاشم نسبة إلى السيدة زينب صاحبة المقام الشهير بالقاهرة، لكن الحقيقة أنه كان يقصد به قنديل السيدة نفسية الشهير، وكان يقصد بالقنديل البحث عن اليقين بين الشرق والغرب.

وقنديل كلمة يونانية، ويقصد به المصباح أو السراج الذي يضيء بالزيت أمام الأيقونات، حيث يوضع أمام أيقونات القديسين في الكنائس إشارة إلى أن نور المسيح فيهم، ولا يوضع القنديل أمام صورة السيد المسيح؛ لأنه نور العالم، وزيت القنديل يشير إلى الروح القدس، فالنور إشارة إلى ثمرة عمل الروح القدوس في الإنسان، وقد انتقل كثير من هذه القناديل ليزين المساجد القديمة في القاهرة، وكان آخر قنديل منها معلَّق أمام حجاب كنيسة العذراء قصرية الريحان بقصر الشمع قبل أن يحرق عام 1979، وصلاة القنديل، صلاة كنسية عبارة عن سبع صلوات أو سبعة فصول من الإنجيل، وتتم من أجل شفاء المرضى ودهنهم بالزيت.

وتتغير رؤية القنديل في المنام، فربما دل على ولد له بهاء ورفعة وذكر وصيت ومنفعة، أو زوج، وربما دل على العلم والتوبة للعاصي والهداية للكافر، وربما كان معبرًا للرؤيا أو دليلًا للقافلة؛ لأنهما مما يهتدى بهما في الظلمات.

ولقوة القنديل والتفاؤل به، سمي الناس باسمه وتشبهوا به، فنجد محمد قنديل، وعلي قنديل، وهو تشبيه للرجل المضيء، كما يقولون: "فلان قنديل الحتة"، لكن للانحدار وقلة ذلك، فقد تغير المعنى إلى السوء، فنجدهم يقولون: "بخته مُقّنِدل" أي سيئ الحظ، وعند الغضب يقولون:

"ساقندلها عليك"، أي أقلبها عليك وأجعلها مظلمة، و"عشته مقندلة" أي بائسة وفقيرة، ويقولون: "ليلة مقندلة"، أي ليلة سودة، بينما نجد في صعيد مصر قنديل الذرة الشامية، وهو "كوز" الذرة الذي يشوى على الفحم.

ومع أن العالم الآن يستخدم الطاقة الكهربائية والنووية في الإضاءة، إلا أنني أعتقد أن القنديل وحفيدته الشمعة هما السبب في وصول العالم إلى ما وصل له من تحضر وتقدم، ومع ذلك فإنني لم أجد عصر "القنديل" وسط العصور التي مرت بها الحياة الإنسانية.

والبيت العربي الآن نادرًا ما تجد به قنديلًا إلا كتحفة أو قطعة ديكور، ومع ذلك أحلم بأن يعود "القنديل العربي" بصفته جالس ويمتلك بئر بترول العالم؛ كي ينير كمشكاة العالم حوله.

الهون – المهراس

أداة طحن وتثبيت وحب وقتل

قلب المطبخ النابض، والجندي المجهول في تجهيز الأكلات، وأمير المشهيات والمقبلات، فارس الولائم، ودليل على مهارة ست البيت وجودة طعامها، وفاتح أذن المولود ضد الفزع والرجفة، وفاكك أسر القمر من حصار بنات الحور.

أمير المطبخ، وتاج على رأس سيدة البيت، بدونه تفشل جميع أكلاتها، وتصبح سيدة بليدة، إنه الهادئ المركون في ركن بعيد، لا يراه الكثيرون، مع أنه كثير الضجيج، وضجيجه المميز، يدل على عمار البيت وكثرة مأكولاته وتنوعها، فهو لا يتحرك إلا إذا كان في مهمة ضخمة، فالوجبة العامرة المشبعة يجب أن يشارك في إعدادها.

والاسم الصحيح للهون هو الهاون أي المهراس، والتي جاءت من الهرس، فيقال: هرس الشيء هرسًا: دقه وبينه، ودقه بشيء عريضٍ، ودقه دقًا شديدًا، والجمع مهاريس، والهاون من آلات الهرس، والخشبة التي يدق بها الحب والجمع مهاريس، والهريس: هو الحَب المدقوق بالمهراس من قبل أن يطبخ، كما أن المهراس تطلق على الرجل الذي لا يخاف ليلًا، وجمعه هواوين .

والهَاوُنُ عبارة وعاء مجوف للدق فيه، ويتكون من جزأين أحدهما دائري الشكل والآخر –اليد– من نفس مادة صناعته وتكون عادة بطول 30 سم، وذات قاعدة مبططة قوية تستخدم للدق بها على الحبوب التي يراد طحنها أو دقه فيه، ويصنع الهون إما من النحاس الأصفر أو الألومنيوم، والبعض الآخر يصنع من الخشب القوي أو الرخام، وهو يزن من اثنين إلى ثلاثة كيلو جرامات إذا كان من النحاس، ويزيد عن الكيلو جرام إذا كان من الألومنيوم، ويستخدم لدق الملح الخشن وأنواع البهارات المختلفة، كما يستخدم في دق الأرز وخلطة باللحم بغرض عمل الكفتة، وكذا دق حبوب الذرة والثوم والبصل والفلفل لأغراض الاستخدام المختلفة بالبيت.

قائد أوركسترا السبوع

والهاون هو قائد أوركسترا السبوع، ودوّي صوته هو إعلان الاحتفال بسبوع المولود الجديد، والتي تملأ القلب بالشجن والسعادة، كما أنه اليوم الذي يطبخون فيه كشكًا بالفراخ، لذا يقال: هو فرخة بكشك، أي أنه عزيز كالمولود؛ لأن الكشك بالفراخ يذكّر بذلك المولود، بعدها يضعون المولود في الغربال ويدقون ملحًا في الهون، وعادة تكون جدة المولود أو إحدى النساء كبيرة السن هي التي تدق بالهون بجوار أذن المولود ليعتاد سماع الصوت القوي، وحتى لا يخاف من شيء، وتردد وهي تدق الهون عبارات الوصايا للمولود بأن يكون مطيعًا ومحبًا لوالديه ولأجداده، ثم تمر الأم من فوق الطفل سبع مرات تردد خلالها السيدة التي تدق الهون عبارات البسملة.

بعدها يرشون ملحًا في البيت؛ حفظًا على المولود من الحسد والعين، ويغنون برجالاتك، برجالاتك، برجالاتك، حلقة دهب في أوداناتك، والرجالات جمع رجل، أو يغنون "يا صغير يا أيد الهون مين قالك تضرب

تليفون"، كما أنه في يوم السبوع وقبله وبعده يُشرب المغات، وهو نبات هندي أميل إلى الصفرة، يُدق ويطحن في الهاون وتوضع عليه بعض البهارات حتى يصير ناعمًا، فإذا أريد عمله، حمَّر في السمن، ثم أضيف عليه الماء حتى يغلي، ثم يضاف عليه بعض اللوز المقشر المكسّر والسكر، بعدها يعبأ في فناجين ويُشرب.

دقة الطرشي وشيخ المحشي وخلطة الملوخية

الدقة، تلك الكلمة السحرية، التي تغرق الأكل بشغف، تجذبك رائحتها قبل طعمها، وتجعل للأكل مذاقه الحاد والمميز والحارق والحريف والذي لا ينسى، إنها الدقة بالثوم والفلفل والبهارات، فلا تستطيع أن تأكل الكشري دون دقة الخل والشطة، كما لا يمكنك أن تأكل بدون فاتح الشهية "الطرشي" خاصة في شهر رمضان دون أن تتذوق أو تشرب دقة الطرشي، وتصبح "سلطانية الطرشي" ماردًا على المائدة سواء فقيرة أو غنية بدقتها الحادقة الحريفة.

ولا نستطيع أن تصنع شيخ المحشي، وهو الباذنجان إلا بعد أن تعد حشوته، وهي مزيج من البصل المفروم فرمًا ناعمًا والسمنة المحمية في مقلاة مضافًا إليها اللحم المفروم مع الصنوبر والملح والبهار والقرفة، وفي النهاية يؤخذ الباذنجان ويجرح قلبه بالسكين طولًا ويحشى بالحشوة، وتكون عادة إحدى قطع الباذنجان ممتازة عن باقي "المحشيات" بكبر حجمها وتسمى "شيخ المحشي".

أما أشهر دقة أو خلطة يشارك الهون في إعدادها، فهي "تقلية الملوخية"، والتي يتم صنعها في الهون، من ثوم وفلفل وكسبرة وبهارات، فهي دليل دامغ على مهارة سيدة البيت وحسن أكلها، تلك التقلية التي تطش

في السمن مع شهقة المرأة الشهيرة، والتي بعدها تفتح نافذة مطبخها كي يشمها الجيران.

كما أنه من أشهر الأكلات التي يقوم الهون بعمل الدقة لها هي البذنجان المخلل وبابا غنوج، حيث توضع مكوناتهما فيه والتي تتكون من ثوم وفلفل أخضر وكمون وملح وليمون وخل، لتصبح دقتهما هي الوسيلة الفعالة على نجاح سيدة المنزل، كما أنه كانت تصنع فيه "دقة الكفتة" من ثوم ولحم وأرز وبصل وتوابل، ثم يقوم الهون بطحنهما وسحقهما، وقد شاهدت أسر تضيف إلى تلك الدقة كثيرًا من الأرز أو غيره لتخفيف كثافته وزيادة الكمية، وخاصة الأسر الكبيرة العدد.

ولقوة تأثير الهون في حياتنا فقد تسلسل من بين أدوات المطبخ وخرج للحياة العامة، فيقال في الأمثال (دقوا في أهوَانَهُمْ وسمعوا جيرانهم)، والأهوان هنا جمع هون، والمراد منه عرفوا جيرانهم أنهم يهيئون طعامهم إظهارًا لحسن الحال وهم على عكس ذلك، كما أن صوت دق الهون المصنوع من النحاس أو الألومنيوم يختلف عن المصنوع من الخشب، ويطلق هنا للدلالة على عدم تساوي الناس في الأشياء والأعمال.

في الأحلام

ولرؤية الهون في المنام تفسيرات عديدة، ولكن معظمها يدل على القوة، فنجد أن بعض التفسيرات تدل على أنه رجل يعمل ويتحمل المشقة في إصلاح أمور يعجز غيره عنها، بينما تفسيرات أخرى تقول: إنه يدل على العز والرفعة، والولد القارئ أو الجارية المطربة، أو الغلام الكثير الكلام، كما أن الهاون ومقبضه في المنام هما رجل وامرأة لا يستغنى أحدهما عن صاحبه، يعملان أعمالًا صعبة لا يقوم بها غيرهما.

أداة قتل

ولأن يد الهون صلبة وقوية؛ فقد استخدمت كثيرًا في أشياء أخرى غير دق الحبوب وطحنها، منها استخدامها في تثبيت مسامير الحائط أو إصلاح بعض الأدوات المعوجة في البيت، إنه هنا يقوم مقام الشاكوش لقوته.

ونظرًا لتلك القوة؛ فقد استخدام الهون كأداة قتل، وقد انتشرت تلك الطريقة في مصر في تسعينيات القرن الماضي، فيما عرف بمسلسل قتل الأزواج، حيث شاهدنا أن الكثير من الزوجات كن يعترفن بأنهن قتلن أزواجهن بضربه على رأسه "بيد الهون" وهو نائم أو مخدر، وتكون تلك الضربة قاتلة نافذة فيها الخلاص، يضاف إلى ذلك مشاعر كراهية أو غباء أو خيانة، بعدها تستخدم أدوات أخرى كالسكاكين والسواطير في تمزيق باقي الجسد.

وكان أكثر ضجيج أحدثه بالهون وأنا صغير، عندما تطلبه إحدى جارتنا من أمي، كنت أدق فيه وهو فارغ أثناء هبوطي أو صعودي السلم، فينطلق صوته المجلجل في أرجاء البيت، بينما يأتي صوت أمي وهي تدعو عليَّ لتلك الضوضاء التي أحدثها، ذلك الصوت الذي ما زال يرّن ويدوي في أذني حتى الآن، ولا أستطيع أن أنساه، خاصة وأنني شاهدت –في قريتنا ديروط الشريف بصعيد مصر– عندما كانت بنات الحور تقوم بأسر القمر، والقبض عليه، معلنة خسوفه، حيث يعم الخوف والصمت ويغلفا القرية، ثم –فجأة– تنطلق أصوات الهاون وهي تجلجل في أرجاء القرية، كان الصوت مدويًا، وجميع الهواوين تدق في لحظة واحدة يصاحبها الخبط على الحلل بغطيانها، لكي ينجلي القمر من خسوفه، فاككًا أسره من بنات الحور.

والآن أصبح الهون غير موجود في البيت أو تم الاستغناء عنه؛ لذا لم نعد نسمع صوته المجلجل مشاركًا في إعداد الطعام أو مصاحبًا للمولود،

ولم يعد يساعد في فك أسر القمر من بنات الحور، بعد أن التهمته أعمدة الإنارة والأقمار الصناعية، واحتلت مكان الهون آلات حديثة تقوم بأعماله، وإن كانت صماء لا شيء مميز فيها، ولا تخرج أي صوت مميز، مثل "الكبة" وهي طحانة البصل والحبوب.

لمبة الجاز

رمز العبقرية والنبوغ والمثابرة والاجتهاد، وقاهرة الظلام والجهل والشياطين والخوف، وصديقة العلماء والعباقرة والفلاسفة والهاربين والمطاردين، مُولدة الأحلام والأفكار والخيالات، حفيدة الشمعة والشعلة والقنديل والسراج، والأب الروحي لكل من المصباح الكهربائي وكشافات النور.

إنها "لمبة الجاز" الرقيقة، الهامسة، المشعة، الصغيرة الحجم، القادرة على إشعال الحياة في الأماكن المظلمة والقلوب الكابية، وإشعاع النور والطمأنينة في البيوت والعقول، ضوؤها محمل بكل خيرات الحياة.

وفي ظلال ضوئها، لا يمكن أن أنسى عندما كانت أمي تضربني لعدم مذاكرتي دروسي، كانت تصرخ فيَّ وتقول: إن العباقرة كانوا يذاكرون دروسهم على "لمبة الجاز"، ثم تعد لي بعض الأسماء من العلماء والعباقرة، نبغوا؛ لأنهم كانوا يذاكرون عليها، بينما أنا لدي لمبات كهربائية ومصابيح تضيء الغرفة ليل نهار، دون أن أحصل أو أصل إلى ذلك النبوغ أو التفوق.

لذا ظلت "لمبة الجاز" تمثل لنا المصباح السحري، الذي ينام بداخله جنّي النبوغ والتفوق، وكنا ننتظر انقطاع الكهرباء حتى نشعلها ونوقظ الجني، فيخرج ويغرقنا في بركاته وننجح دون مجهود، فلم نكن ندرك

وقتها أن لمبة الجاز مجرد رمزًا للمثابرة والاجتهاد مهما كانت الظروف صعبة؛ نظرًا لأن الكثير من علمائنا خرجوا من الريف الذي لم يكن يعرف وقتها سوى لمبة الجاز.

وبينما كان اشتعالها في البيت عندما ينقطع التيار الكهربائي يصيبني بالخوف والرجفة، لكننا كنا نمارس عليها الكثير من ألعاب خيال الظل، تلك الألعاب التي كانت تتسع وتمتد بطول الحائط، حيث نلتف حول لمبة الجاز، ونشكل بأيدينا شكلًا لحمامة طائرة أو وجه إنسان، وتتسع الخيالات وتكبر وترافقنا في النوم لتتحول إلى أشباح مشاغبة تلعب معنا في المنام؛ فلا يجعلها تهرب وتفر إلا عودة النور.

وقد ظلت "لمبة الجاز" تملأ قلبي بالخوف والرهبة كلما شاهدتها؛ ليقيني أن بداخلها جنّي أو عفريت صغير، يقبع بداخلها ويتراقص على أطراف لهيبها، هذا الجني الذي إذا أخرجته صار ماردًا جبارًا يلبي لي رغباتي وأحلامي وأمنياتي، وهو ما لم يحدث ليّ قط، فقط يرافق العباقرة ويمدهم بالأفكار والأحلام، وكأنه يحتاج إلى رشوة كي يصبح خادمي، ولقد حاولت أكثر من مرة القبض عليه واستخلاصه ليّ وحدي، فكنت في غياب رقابة أمي، أحاول أن أمسك زجاجة "لمبة الجاز" كي أخرجه وأعرف ما بداخلها، إلا أن سخونة الزجاجة كانت تلسع يدي، فتقع مني وتنكسر، ولا ينالني حينئذ إلا علقة ساخنة من أمي لكسرِها.

وللأسف الشديد، لم أعثر على لمبة الجاز في أركان البيت ولا بين صفحات المعاجم، لكن وجدت: السَّرَاجَ: والذي يعني أوقده والشيء حسنه وزيَّنه، والسَّراجُ: وهو المصباح الزاهر والجمع سُرُجٌ، والمِسْرَجَةُ: وهي ما يوضع فيها الفتيلة والدهن للإضاءة والجمع مَسَارِجُ، والقِنْديل: مصباح كالكوب في وسطه فتيل، يملأ بالماء والزيت ويشعل والجمع قناديل، والنَّبْراسُ: أي المصباح، والشعلة وهي الحرارة الساطعة، واللهب وشعلة

الموقد هي أداة مستديرة مثقبة ينفذ إليها الغاز فيلتهب، وخِرَق تلف على رأس عصا ونحوها تغمس في الزيت ونحوه وتوقد للاستضاءة؛ لذا يقال كأنه شعلة نشاط أو شعلة ذكاء، والمَشْعَلُ: القنديل ونحوه والجمع مشاعل، والفَتِيلَةُ: ذُبالة السَّرَاج والجمع فتائل.

والكلمة العربيَّة "قنديل" هي تعريب للكلمة الإنجليزيَّة **candle** وتعني أيضًا "شمعة"، أما الكلمة اليونانية "لمباس" فجاءت منها الكلمة العربية "لمبة"، وهي الكلمة الدارجة لكلمة "مصباح"، والقنديل هو الفتيل الذي يوقد باستخدام الزيت، ومن هذه الوجهة يمكن أن يُسمى القنديل "مصباح".

وتضاء القناديل بكثرة في الكنائس أمام الأيقونات، وهي إشارة إلى أن نور المسيح فيهم، ولا يوضع القنديل أمام صورة السيد المسيح؛ لأنه نور العالم، والزيت في قناديل الكنائس يشير إلى الروح القدس، والنور إشارة إلى ثمرة عمل الروح القدس في الإنسان، والزيت المستخدم في الكنيسة هو زيت الزيتون إشارة للحياة الأبدية؛ لأن شجر الزيتون دائم الخضرة أي لا يصاب بالموت، والموت لا يدخل إليه، فهو يشير إلى الحياة الدائمة.

وفي التنزيل العزيز في سورة النور "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجةٍ الزجاجة كأنها كوكبٌ دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيءٍ عليمٌ".

ولمبة الجاز تنقسم إلى قسمين، الجزء الأسفل وهو القاعدة والتي تمتلئ بالجاز أي الكيروسين أو الزيت ويخرج منها الفتيل، لكن إشعاعها لا يكون إلا بوضع الزجاجة عليها، والتي تكون مكتنزة من أسفل، ثم رفيعة كلما

ارتفعنا لأعلى، كما أنها تحتمل السخونة الشديدة، وزجاج لمبات الجاز هو الذي يجعلها تشع أملًا ونورًا، وقادرة على تفتيت الظلام الدامس، واللمبة الجاز نوعين نمرة 10 ونمرة 7، وقد أطلق عليها لفظ "لمبة سهاري"، أي تظل ساهرة طوال الليل.

ولأهمية لمبة الجاز في حياتنا، فقد وجدتها تتسلل إلى الكثير من أمثالنا، فقد كانوا يقولون "بيعوا من قوتكم وأسرجوا بيوتكم"؛ وذلك لأن تسريج البيوت مستحب، حتى ولو كان البيت لا يوجد به قوت وطعام، ولأن إضاءة البيت مستحبة وفيها كبت للشامت، فافعلوا ذلك ولو بالبيع من القوت، وعندما تحيط بالإنسان المصائب من كل جانب، وأصبح كمن لا مفر له من الغرق أو الحرق، يقولون: "زي عذاب الزيت في القنديل تحته ميه وفوقه نار"، ولأن لمبة الجاز خادمة بقدر كمية الجاز الذي بها؛ فقد قالوا: "على قد زيته خايل له"، أي على قدر ما أعطي من الزيت العب له، والمقصود اللعب بخيال الظل؛ لأنهم يوقدون به القطن بالزيت لإظهار الخيال، أي أخدمه على قدر ما يعطي من الأجر.

وتختلف تفسيرات لمبة الجاز في الأحلام، فنجد أن المسرجة نَفْسْ ابن آدم وحياته، وفناء الدهن والفتيلة ذهاب حياته، وصفاؤهما صفاء عيشته، وكدرهما كدر عيشه، وانكسار المسرجة بحيث لا يثبت فيها الدهن علة في جسده، بحيث لا تقبل الدواء، والمسرجة قيم البيت، بينما نجد القنديل في المنام يدل على العلم والتوبة للعاصي والهداية للكافر، وربما كان القنديل معبرًا للرؤيا أو دليلًا للقافلة؛ لأنهما مما يهتدى بهما في الظلمات، والقنديل ولد له بهاء ورفعة وذكر وصيت ومنفعة، وقيل: إن القناديل في المساجد هم العلماء الأغنياء وأصحاب الورع والقراءات، ومَن رأى قنديل المسجد قد انطفأ مات عالم المسجد، والقنديل امرأة والفتيلة أولاد، وتعبرّ القناديل بالنجوم، وكسر القناديل وانطفاؤها موت المريض، ولو أخذ إنسان من السماء نجومًا فإنه يأخذ من المسجد قناديل.

لكن الغرب ينظر للمصباح نظرة مختلفة، فمثلًا إذا نجحت الفتاة في فتن الشاب الذي تحبه، وجعلته ثابتًا في مكانه، بين ثلاثة مصابيح أشعلتها، لهذه الغاية، عامدة، فهي ستنجح في التزوّج به، كما أنه لا ينبغي إطفاء مصباح استخدم للسهر على امرأة ميتة، بل ينبغي تركه لينطفئ بنفسه، كما فعلت الفقيدة.

ومع أن العالم الآن يستخدم الطاقة الكهربائية والنووية في الإضاءة، إلا أنني أعتقد أن القنديل وحفيدته لمبة الجاز هما السبب في وصول العالم إلى ما وصل له من تحضر وتقدم، ومع ذلك فإنني لم أجد عصر "لمبة الجاز" وسط العصور التي مرت بها الحياة الإنسانية، بدءًا من الشعلة التي تخرج من الكهف في يد الإنسان البدائي، إلى المصباح الكهربائي على مكتب العلماء والمفكرين في عصر الطاقة النووية.

والبيت العربي الآن نادرًا أن تجد به لمبة جاز؛ نظرًا للتطور وامتلائه بالمصابيح الكهربائية بأنواعها المختلفة، كما أنه لا يحملها أحد ليلًا؛ لأن الشوارع أصبحت مضاءة بأعمدة الإنارة.

ولكني أحلم بأن يخرج جني النبوغ من لمبة الجاز العربي، بصفته يجلس على بحر البترول في العالم، لكن ينقصه الفتيل القوي والزجاجة الصادقة كي ينير كمشكاة العالم حوله، وكي يفرد عبقريته على وجه البسيطة وعلى جميع الأمم كما كان في الماضي القريب، هذا الجن الذي تبحث عنه المعاهد والجامعات والعلوم والساسة كحل مضمون وأكيد لمشاكل التربية والتعليم والبحث العلمي في الوطن العربي.

فهل يخرج القنديل أو السراج أو النبراس أو لمبة الجاز من القمقم، أو من بين أبواب المعاجم كي يفتح العقل والآفاق والبصيرة العربية.

المنديل

لين وخفيف ورقيق، وهفهاف، ومع ذلك قوي ولئم ومتين وقاتل، مداوٍ وزاهٍ ومُهادٍ ومخفي ومُودع، قادر على الخنق والربط والرقص والقتل، خادم أمين، وراية زفة الشرف الطاهرة وعقد الزواج الأزلي، مُعلم الغَزْلْ، وشفرة سرية للزعماء، والمخلص لعمال التراحيل وقادة الكشافة، رسالة الغرام التي لا تنسى في الحب الأول الخالد، ورمز اهتمام ومراقبة الأم والأب ورعايتهما، وبطل طقوس الزواج دون منازع.

إنه المنديل، الذي يستطيع أن "يصر ويجمع" العالم كله فيه، بدءًا من نقود أمي المصرورة به إلى رسالة للحكام.

والمَنْدِيلُ عبارة عن نسيج من قطن أو حرير أو نحوهما مربَّع الشكل، يُمسح به العرق أو الماء، وتضعه المرأة على رأسها أو تستر به وجهها، والجمع: مناديلُ .

وشجرة المنديل ممتدة جذوها في ثقافتنا الشعبية طائرًا كرسائل الغرام، أو في اليد مُودعًا وملوحًا ومستقبلًا، أو مجففًا للدموع أو معصوبًا على الرأس وقاتلًا حول الأعناق ومكممًا للأفواه، فيقولون: "الضحك ع الشفاتير والقلب يسبع مناديل" أي لا يغرنك الابتسام البادي على الشفاتير أي الشفاه، فإن ما في القلب من سواد الحزن يصبغ المناديل، أو "عصبة

حرير على غطاء زير" و"عصبة وبردة على رأس قردة" والمراد هنا أنها ترتدي منديل زاهي الألوان على رأسها في حين من داخلها قبيح، وهو يضرب للثوب الفاخر يلبسه من لا يستحقه؛ فيظهر فيه بمظهر فخم ولكن لا طائل تحته، بينما في الثقافة الشعبية المغربية يقولون: "يتقطع المنديل ويبقاو طرفه ويمشي الزين ويبقاو حروفه" وهو مفهوم.

لكنه يختلف إذا جاء في المنام، فقد يدل على الرفق أو الزوجة أو الولد، خصوصًا إن كان مطرزًا، فإنه يدل على ذي المعاني اللطيفة والفضل الكثير؛ لأنه يقي به من الحر والبرد ويتعمم به ويشد به الوسط أو يحمل فيه ويربط عليه، ثم يصلى عليه وهو أمان وإمارة للأخذ والعطاء ويحمل على الكتف وينفض به الغبار عن الوجه والثياب، والمنديل خادم وما يرى فيه من حدث أو جدة أو جمال أو صفاقة فتأويل ذلك في الخادم، ومن رأى أنه يعقد منديلًا من مناديل الصباغين فإنه يتزوج امرأة زانية.

وتظل كلمة أبي تتردد في أذني: معك منديل؟ وهي الكلمة التي كان يسألني إياها كلما هممت بالخروج من البيت، فالمنديل هو البرهان على اهتمام أبي بي كل يوم، فوجوده في جيبي كان معناه أن أبي معي، وكانت أمي تضع لوالدي مناديله في رف خاص بالدولاب، ولا أنسى عندما كنت أقوم بكي مناديله ويعطني على كل منديل خمسة وعشرون قرشًا.

ويظل المنديل بطل دون منازع في طقوس الزواج، بدءًا من منديل العريس، والذي يوضع في جيب البذلة، ومنديل "كتب الكتاب" أو عقد القران وهو يغطي يد العريس مع والد العروس، يكون مطرزًا بآيات قرآنية وتاريخ عقد القران، ودائما يتشاجر بعض الأقارب مع المأذون على أخذ هذا المنديل بعد عقد الزواج للذكرى، ثم يشارك المنديل في "فض البكارة" وهو منديل مصاحب للممارسة التي تتم في ليلة الزفاف أو ليلة الدخلة للتأكد من عذرية العروس، ويطلق على تلك الممارسة "أخذ الوش" أو "كشف الوش"

ويطلق على المنديل هنا لفظ "المحارم"، وفي بعض المناطق تحتفظ العروس بالمنديل في مكان تضمن ألا يطأه أحد حتى يصلح كدواء، وتقوم العروس في اليوم التالي بغسل المنديل، والاستحمام بهذا الماء للاعتقاد بأن هذه الدماء تعمل على حمايتها من العقم، يلي ذلك زفة الشرف، بالمنديل الذي عليه نقاط الدم، كإعلان على المحافظة على الشرف، وإعلاء قيمة العفة، ويصاحب المنديل زفة من النساء وبعض الرجال والأطفال، ويتجولون في أرجاء القرية أو الحي، مع الزغاريد والتصفيق وإطلاق الرصاص والغناء مثل: يا حلوة يا بلحة يا مقمعة شرفتي اخواتك الأربعة، "وقولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى" و"دم العروسة ساح وملا الفرشة"، وهي ممارسات تبعث للافتخار لأهل العروس.

وأشهر من يبيع المناديل في الأرياف "الدّلالة" وهي امرأة تستطيع أن تدخل البيوت لبيع منتجاتها من مناديل بأنواعها المختلفة والقمصان وخاصة للنساء، كما كانت تبيع المناديل المصبوغة، والتي كانت تتزين بها فتيات الأرياف بحكها بوجوههن.

وأشهر أنواع المناديل، "المنديل المحلاوي" لمتانته واتساعه، نراه في الأرياف عندما تضع الزوجة طعام لزوجها وهي ذاهبة له في الغيط، كان الطعام فقيرًا وغالبًا يحتوي على كسرات بتاو وجبن قريش وبعض قرون الفلفل وفحل بصل، كما نراه وهو يغطي الكثير من الأطعمة في البيت؛ اتقاء الاتربة والذباب.

وبسبب المنديل المحلاوي تغيّر مسار حياة الملايين من العمال في مصر، عندما ألقاه أحد عمال التراحيل للرئيس جمال عبد الناصر، وهو يركب قطار الصعيد، وعندما فتحه وجد به "بصلة ورغيف عيش بتاو" وقد فهم جمال عبد الناصر تلك الرسالة، وعندما وصل إلى مدينة أسوان أصدر قانون عمال التراحيل والحد الأدنى والأقصى للأجور، بزيادة أجورهم من

اثني عشر قرشًا إلى خمسة وعشرين قرشًا، وتطبيق نظام التأمين الاجتماعي والصحي على عمال التراحيل لأول مرة في مصر.

ويظل المنديل يتسع وينحسر بنا، بدءًا من تعصيب أمي رأسها عندما تقوم بتنظيف البيت أو عندما يداهمها الصداع من ضجيجنا، إلى وضعها النقود فيه "كصرة" وربما يرجع هذا إلى أن العرب كانوا يهدون نقودًا مصرورة في منديل مطرز، كما كان المنديل مشاركًا أساسيًا في لعبة الاستغماية ونحن صغار.

وفي الفن يأتي منديل "ريا وسكينة" والذي كنت أرتعب منهما، وهما يكممن به فم إحدى ضحاياهن، يليه منديل سيدة الغناء العربي "أم كلثوم" وهي تشدو بأغنياتها، وتظل أغنية "افرش منديلك ع الرملة" من أشهر ما غني للمنديل والتي وزعت سبعة عشر ألف أسطوانة في ثلاثة أيام، من غناء المطرب ماهر العطار، ومن تلحين إبراهيم رأفت وهو أخو الملحن الشهير محمد الموجي، كما يوجد فيلم للفنان إسماعيل ياسين بعنوان "دستة مناديل" مع المطرب الشعبي كارم محمود ومن إخراج عباس كامل عام 1954.

ولا يفوتني هنا "علبة مناديل عيد الأم" التي كان معها زجاجة عطر صغيرة لأمي؛ لأنها على قدر النقود التي شاركت فيها أنا وأخوتي، بالإضافة إلى "بوك" أي كيس نقود، كما يوجد مناديل زاهية الألوان يطلق عليها مناديل "بأوقة" يتدلى منها كرات مختلفة الألوان، يضاف إلى ذلك منديل "بترتر" والذي كان يزين رأس المرأة في دلال ودلع، بينما كنت أكره المناديل المعطرة التي كان يضعها المميزون في جيوبهم في الريف، وخاصة الذين نالوا درجة من التعليم، وكان كلما بدأ الكلام يخرج منديله فتفوح منه الرائحة العطرية.

ولاتساع المنديل؛ فقد خرجت منه الكثير من المسميات في حياتنا، منها "فتح المندل" وهو نوع من الإيحاء أقرب إلى الدجل لإظهار سارق شيئًا ما، ويستخدم فيه طفل صغير يوضع على رأسه منديل كبير ويتم سؤاله عما يراه وسط جو من البخور.

كما أن المنديل القماش لا يجب أن يلقى؛ لأن حصول شخص عليه يمكن استعمال "كقطر" ويضع صاحبه تحت سيطرته ويتم إيذاؤه به.

ولا ننسى منديل البطن وهو المعروف لدينا بالفتق هو اندفاع جزء من الأمعاء عبر نقطة ضعيفة من عضلات البطن، بينما نجد "منديل الخروف أو العجل" من أجمل الأطعمة وهو المعروف "بالطرب" وهو جزء من الأمعاء يتم حشوه.

وكان المنديل شيئًا أساسيًا بالنسبة للكثير من المهن، فلبس المنديل حول الرقبة علامة للخضوع والولاء ونجده لدى أفراد الكشافة، ونجده يوضع للحماية والنظافة لدى الموظفين، فنرى كثير من الموظفين يضعونه على ياقة القميص؛ خوفًا من العرق، كما لا ننسى رجال المرور يضعونه حول ياقة القميص أو أسفل طاقية الشرطة اتقاء الشمس والعرق، بينما في الصحراء نجد المنديل يتحول كدليل على شخص ما، فعندما يفقد الشخص الطريق ويوشك على العطش والوفاة، فإنه يربط المنديل بطرف عصا ويموت بجوارها، وهنا يعرفون من مات من منديله، كما نجده عند القدماء المصريين يستعمل من طرف الملكات والآلهة.

ويربط الشرق المنديل بالحزام، فنجده كثيرًا لدى القبائل وهم يربطون حول وسطهم، ونرى الفلاحين في المزارع ليصبح ما أعلى الجلباب "خُرج" يضع فيه بعض الأطعمة التي كان يقوم باختيارها من الغيط، كما أنه دليل أمان حيث إشارة العفو، ففي ألف ليلة وليلة نجد تلك العبارة "العفو يا أمير

المؤمنين، أعطني منديل الأمان ليسكن روعي ويطمئن قلبي"، بينما نراه كثيرًا وخاصة باللون الأبيض شارة للاستسلام في المعارك، وربما يتحول إلى أداة قتل، فيكون بالمنديل سم، وعندما تضعه على أنفك وتستنشقه تموت، استخدمته كثير من الملكات في قتل ما تريد بالمنديل المسموم.

والآن جميعنا نحتاج إلى منديل، ليس لمسح الأنف أو العرق أو الدموع أو للعض على طرفه عند القلق أو ليحمينا من الصداع أو الشمس؛ بل لأنه دليل على عدم عزلتنا واهتمام آخرين بنا، في سؤال أبي الخالد: معك منديل؟

النيش.. ذلك الطاغية المستبد

طاغية، جبار، مستبد، يقف شامخًا في غرور، يعيش في منطقة محرمة، كثُكنة عسكرية ممنوع الاقتراب والتصوير منها، نادرًا أن تمد إليه يد، وصعب أن تفتح أبوابه ونوافذه، تتطلع له العيون بشغف، لكن دائمًا القلوب تريد اختراقه أو حتى الثورة عليه وتحطيمه.

إنه "النيش" سلطان أثاث البيت، والذي بسببه تدمر علاقات، وتفشل زيجات، وتقطع حبال قصص الحب الجميلة.

و"النيش"، هذا المبنى الخشبي الخرافي، والمكسو بالزجاج، والذي يسيطر على مساحة مهولة، من بيوتنا الضيقة، يبدو للضيوف وكأنه "متحف تاريخي" لا يمس، هو للمشاهدة فقط، لأنه –ببساطة– يحمل الغالي والنفيس، ودليل على ثراء الأسرة، أو يدل على أيام مجدها السعيد.

وكلمة "النيش– Niche" فرنسية المنشأ، والتي تعني المكان المناسب للشيء الثمين، وكان يقصد به مكان "شيك" ولائق تحتفظ فيه سيدة البيت بالقطع الخزفية والفضية الغالية الثمن، والمحببة على نفسها.

ولأن النيش يبدو كمستعمر بغيض في بيوتنا، فإنه قد استولى على فكرة "دولاب الفضيات" في الماضي، وهو قطعة أثاث صغيرة الحجم، عبارة عن

دولاب زجاجي يتم عرض فيه القطع الثمينة من الفضة، خاصة غالية الثمن أو التي ترثها العروس من والدتها أو جدتها؛ لذا تحرص الأمهات على الحفاظ على مقتنيات "النيش"، لأنها تضع فيه جميع الأشياء القيمة، لدرجة أنهن يرفضن أن يقترب أحد منه حفاظًا على سلامة محتوياته.

ف "النيش" موجود بكل بيوتنا، والسبب في القلق منه، أو عدم القدرة للتعرض له؛ يعود لأن مكوناته قد تتخطى أرقام فلكية، فهو يحتوي على النادر من: أدوات منزلية، وأطقم كاسات وأركوبال وأطقم شاي وقهوة وأطقم كوبايات، والبونبنيرة والفضيات والكرستلات، وأطقم الخشاف وأطقم الصيني بأنواعه وشنط ملاعق".

ورغم أناقة النيش، إلا أن اسمه يدل على تكلف غربي يداهم بيوتنا المصرية، فوجوده أو الإصرار على وجوده، تنشأ كثير من المشكلات في بداية تأثيث بيت الزوجية؛ وذلك لأنه ثمرة الصبر، وشقى العمر "أبو العروسة وأمها"، واللذان تعبا كي يأتيان لابنتهن ما تريده وتحلم به في بيتها، فالنيش يعبر عن كفاح سنوات ما بين بحث، وجمعيات مالية تقام، "وسلف ودين واقتراض" من أجل شراء محتوياته، كما أنه هو القطعة الفريدة التي سيشاهدها الضيوف في البيت، وبالتالي يجب إظهار الكفاح في تكوينها، وقد يقول الضيوف ساخرين، لو لم يجدوا نيش ممتلئ بالأطقم "أهلها مجهزوهاش" أو قد يظهر مدى ضيق اليد لأهل العروس، فالنيش ببساطة يحمل لافتة وواجهة يسر حال أهل العروس.

فإذا أضفنا في تقاليد شراء النيش ومقتنياته قول "مثل بنت طنط سعاد"، أي أنني يجب أن يكون لدي نيش مثلها، سنعلم حتمية وجوده في بيوتنا.

كل ذلك جعل النيش ذا شخصية مغرورة ومتعالية، وإن كان لا يعبر عن شخصية أصحاب البيت، فإذا كان يدل على الثراء أحيانًا، إلا أن الحقيقة، إن

شراء تلك الأشياء جاء "بطلوع الروح" وبعد عمل جمعيات، ولف ودوران في المحلات، لاختيارها، حتى ولو كانت غير أصلية، فالهدف واحد وهو وضعها داخل النيش.

كل هذه موروثات نأخذها دون تفكير، ودون النظر لأحوالنا المادية والنفسية والاجتماعية، أو معرفة حدود جغرافيا بيوتنا الضيقة، إنها ليست موروث بقدر ما هو عاهة اجتماعية وراثية نعيش فيها وتحيا وسطنا.

ولأنه أناني، ولا يحب إلا نفسه، فإنه نادر، بل ومن المستحيلات أن يجد مساهمة له في أي وليمة أو عزومة، أو قدرة محتوياته على الترحيب بأي ضيوف، ناهيك عن عدم امتداد يد من الأسرة –صاحبته– ناحيته، أو أن يمرح الأطفال وألعابهم بالقرب منه.

ولأن الأزواج لا يعرفون قيمته، وقيمة ما دفع فيه، وقيمة تكوينه وما يحتويه، فهم يظلون يخشونه، خاصة لعدم معرفتهم بأسعار الأشياء التي بداخله، هم فقط يشاهدونها رقمًا في قائمة الزواج فقط، لكن خلف هذا الرقم، كفاح ومعاناة واختيارات ورؤية، تظل سر من أسرار الزوجة وأسرتها في بناء عش الزوجية.

وتتغلغل فلسفة النيش داخل عقليتنا المصرية، وهي الاحتفاظ بالأشياء دون استعمالها، فالنيش: "مقبرة فرعونية" نراها ولا نستطيع النبش فيها؛ لذا فإنه متحف الحياة الزوجية، والذي يذكرنا بأيام ماضيه أثناء تأثيث الشقة، وكأنه يثبت أن له الفضل في هذا الحنين الروحي، وإن كان استخدام محتوياته بشكل مناسب ودون تعرضها لخطر، يجعله صديقًا للأسرة ومحافظًا على تراثها بل ودليل على تاريخ نشأتها، ودليلًا عاطفيًا على أيام الزواج الأولى وما تحمله من عاطفة قد تذوب أو تخفت أو تتلاشى مع مرور الأيام، إلا أن النيش يظل صامدًا لينبهنا بها، فأغلب ما في النيش لا يستخدم مطلقًا، وأحيانًا

يتزوج العروسان وتمر بهما الشهور والأعوام وينجبان ثم يشيخان ويموتان دون أن يفتح النيش العظيم إلا لتلميع وتنظيف الأشياء الأسطورية القابعة في صمت خلف زجاجه اللامع.

وإذا ما تجاوزنا عن عملية تكوين النيش وشرائه وحجمه ومبررات وجوده، نجده يتسبب في إحدى المشكلات الكبرى، وهي ترتيب الأشياء بداخله، فهي من العمليات المهمة والخطيرة، أي التي يجب اختيار أشخاص موثوق فيهم، وكأنهم يقومون بصنع "قنبلة ذرية" لإنجاز تلك المهمة، لما يحتويه من مقتنيات قيمة قابلة للكسر، ولا بد أن يكون لديهم موهبة ترتيب الأغراض بذوق عالٍ؛ حتى يشاهدها الضيوف.

ومن هنا، يظل النيش قطعة مهمة، تتنافس كل أسرة في تكويناتها، فلا يصح أن تجلس على مائدة السفرة دون أن تلقي عينيك على قطع النيش ومحتوياته المهمة وغالية الثمن، وكثيرًا ما تصاب كثير من النساء بالقلق، لعدم وجوده؛ نظرًا لأنه القطعة المهمة التي تحتوي على كل غالٍ ونفيس.

ورغم شعارات السخط، ومشاعر ونظرات الكراهية التي يتلقاها النيش يوميًا، إلا أن جبروته –كمحتل– يظهر بوضوح أثناء تجهيز عش الزوجية؛ فهو يتسلل خفية ليصبح حجر الزاوية في أي اتفاقات زوجية؛ ليؤكد قدراته على الصمود، كما يضاف إلى حتمية وجود النيش الأزمة التي يقعن فيها الفتيات وهي "هانحط الكاسات والأطقم فين؟"، لذا فإن رفضهن لوجوده في البيت، يتلاشى فور إخراج تلك الأشياء من العلب والكراتين، فيحرصن على وجوده مهما حدث.

النيش: ذلك الأنيق في تكلف غربي، وكأنه محتل غادر، حتى بعد محاولات الثورة عليه والتي بدأت تنتشر في الآونة الأخيرة، إلا أنه ما يزال –لدى الكثيرين– يمثل منطقة ذات نفوذ وذات سيادة، بعيدًا عن رغبات

الزوج، بل وفوق قدراته المادية؛ لذا تظل منطقته منطقة محرمة، خاصة على الأطفال، أو عيون الحساد وأيديهم.

ورغم كل ذلك، فنحن نراه يملأ بيوتنا، بل ويعيق حركة حياتنا –وكأن حياتنا ينقصها ما يعيقها– إلا أنه في السنوات الأخيرة، بدأ يحدث انقلاب خطير على النيش؛ نظرًا لضيق البيوت، وثانيًا لتكاليفه الغالية، وحجمه الذي يمكن الاستغناء عنه، وهي مجرد مبادرات ثورية، أو غضب يملأ النفوس، دون أن تصل الأمور للثورة عليه أو تحطيمه، ورغم كثرة تلك المبادرات في السنوات الأخيرة، ضد النيش، وضد وجوده، إلا أنها مبادرات لا تخرج لحيز الإطاحة به، فما يزال قادرًا على الوجود وبقوة، وإن كان اتخذ بعض الأشكال المغايرة، سواء في جحمه أو مكانه.

فهل سوف تقام ذات يوم ثورة حقيقة عليه، تحمل شعار "مكتبة بدلًا من النيش"، أو "ارحل، ارحل يا نيش".

وإذا كان النيش استطاع أن ينتصر على الحب لسنوات طويلة، فإنني أتمنى أن ينتصر الحب عليه، في السنوات القادمة، رغم خوفي من مد يدي إليه، لأخرج منه أحد الكاسات واستخدامها، قبل عودة زوجتي من الخارج.

فهرس

البيت..... 5

الطبلية 10

الإبرة..... 15

البابور 20

الحبل 25

الحصيرة..... 30

السبرتاية 35

مزاج السبرتاية..... 38

الطشت 41

العصا..... 46

القبقاب..... 52

القُلة..... 58

القنديل 64

الهون – المهراس 67

لمبة الجاز 73

المنديل..... 78

النيش.. ذلك الطاغية المستبد..... 84